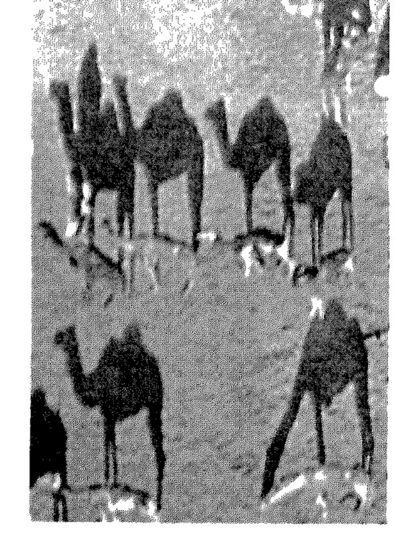
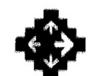


الياس كانيتي

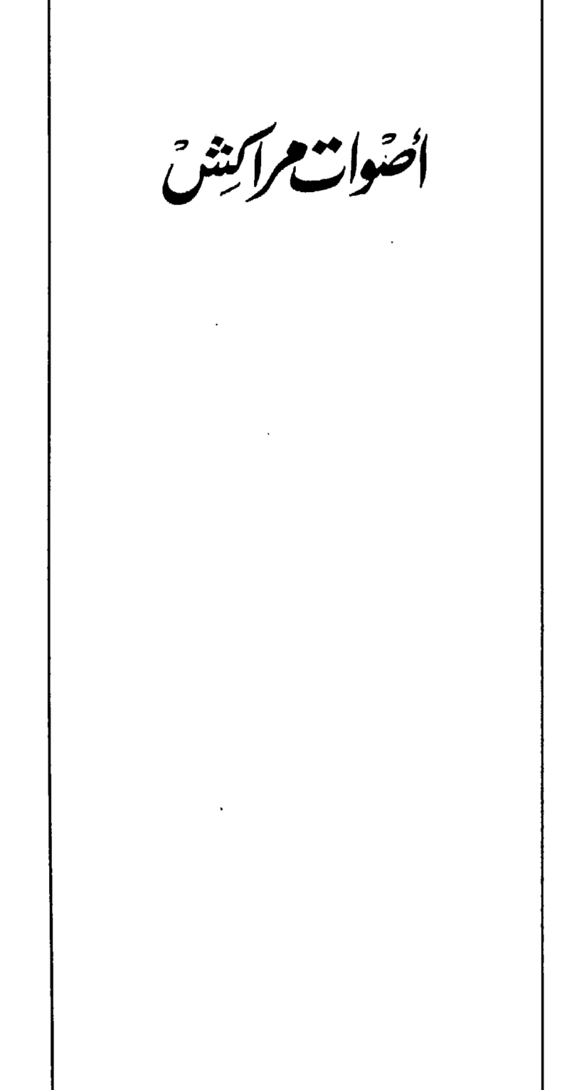
أصوات مراكش

ترجمة: كامل يوسف حسين





سلسلة كتاب شرقيات للجميع (٣٠)


أصوات مراكش

العنوان الأصلي
Die Stimmen von Marrakesch
Elias Canetti

أصوات مراكش

إلياس كانيتي

ترجمة كامل يوسف حسين



دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي
رقم بريدي ١١١١١
باب اللوق، القاهرة
ت: ٣٩٠٢٩١٣ س. ت: ٢٦٩١٩٨

غلاف وإخراج: ذات حسين

رقم الإبداع ٨٢١٩/ ١٩٦٦
الترقيم الدولي ISBN 977-283 001 9

أصوات مراكش

إلياس كانيتي

ترجمة: كامل يوسف حسين



مقدمة المترجم

(١)

«إنها كتابة تمنح موضوعها سيولة، تتيح لأجزائه أن تنتقل وتتقاطع وتتوالد وتتآلف، إنها كتابة يلعب الهواء الحر بين سطورها، تقرأ على إيقاع التنفس الصباحي.»

بهذه الكلمات اختتم مايمكن أن نصفه بأوفى محاولة للرحيل في النسيج العقلي لإلياس كانيتي، بقلم عربي. مع ذلك فإن الانبهار والإحساس بالمفاجأة اللذين يضخانها لم يقتصرا على صاحب هذه الكلمات وحدها، وإنما كمنا في الحقيقة في صلب الجانب الأعظم من محاولات تلمس أبعاد عالم كانيتي.

تضم أعمال كانيتي رواية طويلة، ثلاث مجموعات من المقالات، دراسة هائلة للظاهرة الجماهيرية استغرق إعدادها ربع قرن من الزمان، عدة مسرحيات، وسيرة حياة ذاتية. مع ذلك، فحينما أعلنت لجنة جائزة نوبل فوز إلياس كانيتي بأعظم جائزة للآداب في العالم تساءل النقاد والكتاب المتخصصون على امتداد العالم في غير قليل من الحيرة: من الرجل؟ وما أعماله؟

حين صدرت رواية كانيتي الموسومة «أوتو رافي» لأول مرة عام

١٩٣٥ مفجرة، في إطار من الكوميديا السوداء، هجوماً بالغ العنف على الفاشية، وموجهة نقداً شديد المرارة للقوى التي ساهمت في انهيار النزعة الإنسانية الليبرالية، صدر قرار فوري بحظر تداولها في المانيا، وقدر لها أن تنتشر كاللهب في سبع عشرة دولة، لكن ناشر الترجمة الإنجليزية في لندن، حيث يقيم مؤلفها، أسقطها من قائمته في عام ١٩٧٨ خلال المراجعة الدورية المعتادة، ولم يقدر لأعماله التالية أن تجتذب اهتمام الكثيرين من النقاد أو الكتاب، دع جانبا القراء، الأمر الذي ترك الكاتب البلغاري المولد وسط ظلال، جابه محاولة الرحيل عبرها عقب فوزه بجائزة نوبل بقوله: «من يرد الإلمام بشيء عني فعليه بقراءة كتبي».

غير أن مذكرات كانيتي الموسومة «اللسان طليقاً» لاتفض أسرارها بسهولة للقارئ وإنما تدعو، لرحلة طويلة عبر شعاب وعرة.

ولد كانيتي في عام ١٩٠٥ في بلغاريا، ثم انتقلت أسرته عقب ذلك إلى انجلترا. تلقى تعليمه في هذه الأخيرة، وكذلك في النمسا وسويسرا وألمانيا، وحصل على درجة الدكتوراة في الكيمياء من جامعة ڤينا عام ١٩٢٩، غير أنه قرر أن يشق مجرى حياته في عالم الكتابة. ورغم تملكه لناصية ثماني لغات، الا أنه آثر دائما الكتابة بالألمانية، التي كانت لغة الحديث في أسرته، وحتى عقب نفيه من ڤينا في ١٩٣٨، إثر قيام النازي بضم النمسا، واصل الكتابة بالألمانية، ورغم حصوله على الجنسية البريطانية، وإقامته في لندن منذ ماقبل الحرب العالمية الثانية، فلا يزال يكتب بالألمانية حتى اليوم.

يسود أعمال كانيتي شعور عنيد بالخصوصية الفردية، المتدفقة بالأفكار، وتدل كتبه على نطاق هائل من الاهتمامات، لكنها تفصح كذلك عن انضباط عقلي صارم، قل نظيره في عالم فكري يميل إلى طرق أقصر الدروب، وإلى الانقياد من الاستسهال إلى التسيب، بحجة مواكبة إيقاع

الحياة عند المنعطف الرابع للقرن العشرين.

رغم محاولات التعرف العربية، التي بذلت عقب فوز كانيتي بجائزة نوبل، فإن الرجل لايزال في أذهاننا شبحا ضبابياً، ويظل- دونما إجابة مقنعة- سؤال محدد: ماهو جوهر العالم الخلفي الذي انبثق منه فكر كانيتي، وبأي معنى يمكن لنا كعرب أن نلج مداخل هذا العالم؟

(٢)

«إن وعي الأمة بنفسها يتغير عندما، وفقط عندما، يتغير رمزها».

تلك كلمات كانيتي في أهم أعماله «الجمع والسلطان»، الذي استغرق إعداده قرابة ربع القرن، والصادر في ١٩٦٠ والذي يتصدى للظاهرة الجماهيرية، التي ظلت مبحثاً شديد المراوغة يتحدى محاولات الإمساك به من جانب علماء الاجتماع ودارسي النظرية السياسية، لانقول منذ خصص أرسطو مبحثاً لأسباب الثورة في كتابه «السياسة» وإنما منذ حاول لوبون ضبط الظاهرة ومحاصرتها، فرواغته حتى وصفها بأنها ظاهرة «نسائية»، إلى محاولات القائلين بالمدرسة السلوكية لمحاصرتها في ضوء معطيات المعمل السياسي.

الكتاب يتغذى من العالم الذى عاصره، لكنه أيضاً يستحضر تجارب القرون، فتضج جنباته الواسعة بأصداء شتى لايحصي القارئ الجهات التي تهب منها وتأتي، يكاد يكون تاريخ البشر بكامله، لكن الهم واضح وصريح ومحدد: محاصرة الظاهرة الجماهيرية، تشريح الجمع في اندفاعه. وحشيته، توقفه، سكونه، وانحلاله.

وعودة إلى المقتطف الذي بدأ منه هذا الاستطراد، يلاحظ كانيتي أن

الرموز القومية هي على الدوام رموز للجموع ولسلطانها، أو أنها رموز لخصائص الجموع في توليدها للسلطان.

يضرب كانيتي أكثر من مثال واحد للدلالة على ما يعنيه هنا، فالبحر بالنسبة للإنجليزي ليس حياة فحسب، وإنما هو تجاوز للحياة والموت معاً، فكل إنجليزي يرى نفسه قبطاناً بحرياً، البحر مصدر قوته وميدان مغامرته، والبحر قبره الذي يضعه في النهاية، البحر مصدر التحول، تفاعلاً مع الدنيا، وهو أيضا مصدر الثبات، صموداً في وجه الآخرين، واتقاء لغيلة المهاجمين.

بالمقابل فإن السد هو الرمز الجمعي لهولندا، رغم كونها قوة بحرية بالأساس، قارع أسطولها انجلترا على امتداد بحار العالم. لقد كان على الهولندي عبر البحر أن يكسب الأرض التي يقطنها، فهي منخفضة إلى الحد الذي اضطره للجوء للسد لحمايتها من غائلة البحر، والخندق، وهو صورة أخرى من السد، لدفع الغزاه عنها، هكذا فالخنادق بداية حياة الهولنديين القومية ونهايتها، وحينما يرفعون راياتها في أوقات الخطر فإنهم بالمقام الأول يرفعونها ضد البحار الكامنة في صدورهم.

والرمز في ألمانيا مختلف تماماً إنه «الغابة الزاحفة»، ففي ألمانيا تمثل الغابه الرحم العتيق الدافئ واهب الحياة، ومانح القدرة على استمراريتها، ومن صرامة الغابة الألمانية وانضباطها يستمد الجيش الألماني مقوماته.

لكن الرمز في فرنسا تتكاثف جزئياته إلى حد التعقيد، إنه الثورة، وبالتحديد ١٤ يوليو، حين انطلق جمع ظل طوال القرون ضحية للتصور الملكي للعدالة، ليحقق العدالة بكفيه العاريين، فيقتحم الباستيل، منفجراً في المارسييز، ومسجلاً تلك الحيوية التي لاتفتأ تتجدد مع كل استحضار للرمز القومي.

لو أننا سايرنا هذا النمط مع التفكير- رغم ماقد يكون لنا عليه من تحفظات- فماهو الرمز القومي الذي يمكن أن نتصوره للعرب وكيف يتفاعل هذا الرمز مع حياتهم النفسية الجمعية؟

لأول وهلة لايبدو التصدي لعلامة الاستفهام تلك أمراً يسيراً، وهذه الصعوبة شديدة الأهمية في الدلالة على الوضعية الراهنة للرمز، وعلى تمزق النسيج الذي يربط رمز الأمة بوعيها، على نحو يندر أن نرى له نظيرا. مع ذلك فإن نظرة مدققة كفيلة بأن توضح أن الرمز القومي للعرب هو الصحراء، حقا أن الكثيرين منا قد يعيشون أعمارهم وأعينهم لاتكاد تلمح الصحراء، إلا في إطلالة سريعة، ينطبق هذا القول على أبناء الريف النهري، الذين لايعرفون درباً إلى خارج قراهم، وقاطني المدن الذين ينفقون أعمارهم في سراديبهم الأسمنتية المغلقة كالقبور، مع ذلك فالصحراء كامنة في صدورهم جميعاً، حاضرة ذلك الحضور المتوهج، الذي لايملكه إلا الرمز، وما من دليل على ذلك أقوى من خروج العرب للصحراء وقت الخطر للقتال، وهي تجربة- على عكس مايتصور الكثيرون- من حسن طالع أبناء هذه الأمة أن خاضوها مؤخراً؛ ففي الصحراء، وفي أقل من نصف عقد من الزمان، تهاوت في صدور جيل بكامله من الشباب العربي كل البنى والهياكل والتراكيب، التي فرضت على الحياة العربية، منذ وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، ورغم كثافة غبار الانكسار، فإن الأعمى وحده هو الذى يعجز عن تبين -في قلب الركام- ملامح ماهو آت.

مع ذلك، فإن ثمة ملاحظة دقيقة لابد من تسجيلها هنا: حقاً أن الصحراء هي بالنسبة للعربي المنطلق، وهي أيضا المآب، وهي بين هذا وذاك المعقل الحقيقي، الذي يلاذ به وقت الخطر تلمساً للقوة، ووقت البلاء نشدانا للحكمة (هل لنا أن نتذكر أنه حتى في القرى النهرية يرحل السكان بأطفالهم مع ميلادهم إلى الصحراء التماسا لبركات الأولياء

المدفونين في الصحراء، هكذا يفتح الطفل العربي عين الدهشة في مطلع حياته على الصحراء في تجردها الصامت كالسيف، ثم يغمضها عليه أيضا، إذ أن معظم المقابر حتى في مثل هذه القرى وفي المدن موجودة في الصحراء؟) نقول حقا إن الصحراء هي المنطلق والمآب، لكن الخطير أيضاً أن هذا الرمز شرع في الشحوب، وشحب معه الوعي القومي، وسقط العرب في الأرض الخراب بين رمز قديم يجري هجرانه بضراوة ورمز جديد لم يتبلور، وليس ثمة مايدل على أنه موشك على التبلور قريباً.

ولكن ألا تنقلنا هذه الملاحظة إلى صلب العمل الوحيد لإلياس كانيتي الذي يدور تحت سماء عربية وهو كتابه في أدب الرحلات الموسوم «أصوات في مراكش» والماثل بين يدي القارئ الآن؟

«لم يكن هناك إلا الهباء، إنها الحقيقة ذاتها، باحة موت ضائعة، حينما تنظر إليها لا تحس بأدنى اكتراث بهوية الراقدين تحت التراب وموضع ضجعتهم الأخيرة، لاتتوقف! لا تتأمل الأمر! هاهم جميعا يرقدون كومة من حجار، فتود لو تهرع فوقهم، منطلقاً كالضبع، إنها برية للموتى ماعاد شيء ينمو فيها، البرية الأخيرة، آخر البريات جميعا».

تدفق هذا الفيض من الشعور بالهباء، بالعدم، في الموضع الوحيد من هذا العمل الذي تناول فيه إلياس كانيتي الحديث عن الصحراء، وربما كان في ذلك يعكس مشاعر الكثيرين من العرب أنفسهم، الذين شرعت عرى الارتباط بينهم وبين رمزهم القومي في التحلل. أليس من العجيب حقاً أن هذه الإشارة تتناول رؤية للصحراء من خلال... مقبرة؟ لكن كانيتي يملك العين الأسطورية، التي تذكرنا في حيوية وتوهج بعين تشيخوف القادرة على الإلمام في لمحة بالتفاصيل، كل التفاصيل الدقيقة والإنسانية التي وصفها نابوكوف مرة بأنها «تفاصيل إلهية»، فها هو ذا يعود ليخرج برؤية كلية من خلال التفاصيل متنسما عبق الحياة الأشمل في غور المقبرة

فيقول: «في طريق العودة لم تبد لي أحجار القبور الركام ذاته، فقد أصبحت أدري أين يتجمع سناها وحياتها».

ليست «أصوات مراكش» عملاً قاتماً كما قد يوحي المقتطف الأول، وإنما هو في الحقيقة أقرب إلى معمار موسيقي، شديد الرهافة والدقة، يشف حد الشجن، يصخب حد العنف، يسافر راحلاً في الفرح، يتماوج مخاصراً المدينة التي يعزف في رحابها، ثم ينساب مختزلا نبض مراكش في دقة مذهلة.

يمكن القول بأوسع المعاني بأننا في «أصوات مراكش» بإزاء ثلاث حركات متمايزة، ومتناغمة، في نسيج شديد التداخل والتركيب، ومحاولة فصل جزئياته هنا إنما تعتمد التبسيط، بهدف استشراف روح العمل.

تضم الحركة الأولى المقاطع الخمسة الأولى من الكتاب، بدءاً من «وجهاً لوجه مع الإبل» وانتهاء بـ« الدار الصامتة والأسطح الخاوية». تبدأ بضربات قوية، لكأننا بين يدي خامسة بيتهوفن، هي ذي جعجعة الإبل ترتفع في عتمة الغروب، مجلجلة بكل مافي المدينة المشرقية من جبروت قدري، يخيل للغريب أنه جبروت المدينة ذاتها، يثور عنفوانه في مواجهة محاولته اكتناه أسرارها، لكن المدينة، التي ودعت العنفوان الحقيقي في مكان ما على الطريق الطويل الممتد من القرون الوسطى، لا تلبث أنفاسها أن تتقطع، فلا تملك الاستمرار طويلاً في التظاهر بالجبروت، هكذا تصل أصواتها إلى حد الموات في «الدور الصامتة».

الحركة الثانية التي تشمل المقاطع الثلاثة الوسيطة المشكلة لأطول أجزاء الكتاب، بدءاً من: «المرأة المطلة من النافذة» مروراً بـ «إلى باب الملاح » وانتهاء بـ«عائلة الدهان» تبدأ أيضاً بلقاء مع القدر. ولا أظن القارئ يجد كثيراً في الأدب العالمي شجن هذا اللقاء ورقته وشفافيته، التي يعزف الكاتب الغربي أنغامها، فيفجر فينا كشرقيين حزن وإحباط وتعاسة

آلاف السنين، المرأة الجميلة المهيمنة عند النافذة، مقدمة العطاء الإنساني الوحيد في مدينة بلا قلب، حين تتكشف عن نوازع الجنون، إنما تقدم لنا بحدة وكضربة سيف دم عشقنا المهدور، ضياع ثوارتنا التي ركب موجاتها الانتهازيون، فننا الذي تحول إلى تلاعبات بلهاء بالشكل، تخفي موات المضمون، ديننا وقد تحول من ثورة اجتماعية إلى «دروشة» راحلة في الغياب، وبكلمة تقدم لنا اغترابنا وقد فشلت كل أساليب الانعتاق في تحريرنا من إساره.

في الحركة الثالثة التي تبدأ بلقاء مع «الحكواتية والكتبة» لتنتهي أمام أحجية «المحجّب» نحن في لقاء مع القدر أيضاً، هاهم الحكواتية يعيدون بأقاويلهم الطنانة جعجعة الإبل في صدر الكتاب، لكن محاولاتهم تجميل وجه المدينة المحتضر، ببطولات الفرسان الراحلين، لاتفلح في إخفاء الحقيقة، هذه الحقيقة التي سرعان مايقدمها لنا «المحجّب» بصوته أحادي المقطع، المتردد أبدا، الذي تحار مع الكاتب في تفسيره: أهو ندب صامت للموات الشرقي الذي كان مدينة يوما أم هو بشير بانبعاث الآتي؟ إنه على أي الأحوال «الرَفَعْ» المذهل للجبروت الصاك عند أسوار المدينة وللموت المهموس في قرارها.

وحدها المدن التي تملك عبقرية الانبعاث من موات القرون، لتمتد باتجاه تجاوز الأسوار، لا الغرق في رحاب المقابر، تستطيع أن تجعل «المحجّب» رمزاً للغد الآتي واهب الحياة.

فتسمع ماحولك!

تسمع ماحولك!

المترجم

وجهاً لوجه مع الإبل

مرات ثلاث التقيت بالإبل، وانتهى كل لقاء على نحو مأساوي.

قال صديقي، بعد وقت قصير من وصولي إلى مراكش:

– لابد أن أريك سوق الإبل، في صباح كل خميس ينعقد قرب السور، على مقربة من باب الخميس، أي في الجانب الآخر من المدينة. من الأفضل أن أمضي بك في سيارتي إلى هناك.

حل يوم الخميس، فانطلقنا بالسيارة إلى هناك. كنا قد بدأنا رحلتنا متأخرين، وحينما بلغنا الميدان الفسيح، الممتد قرب سور المدينة، كان النهار قد انتصف، لاح الميدان خالياً على وجه التقريب. في الطرف البعيد، على بعد حوالي مائتي ياردة من حيث وقفنا، انتصب جمع من الناس، لكننا لم نلمح بعيراً واحداً. كانت الدواب التي عكف عليها هذا الجمع هي الحمير، وكانت المدينة حافلة بها على أي حال، فهي تحمل الأثقال، وتساء معاملتها، وكنا يقيناً أبعد الناس عن الرغبة في مشاهدة المزيد منها. قال صديقي:

- تأخرنا كثيراً، انفض سوق الجمال.

انطلق بالسيارة إلى قلب الميدان، لإقناعي بأن ليس هناك المزيد مما يمكن أن نشاهده.

لكننا، قبل أن يقف، لمحنا جمعاً من الناس ينفرط عقده. وسط الجمع انتصب بعير، متوازناً على أخفاف ثلاثة، إذ كان قائمه الرابع موثقاً. التفت حول خطمه كمامة حمراء، تدلى حبل متوسطاً منخريه، راح رجل، يقف على مبعدة، يحاول المضي بالدابة بعيداً. كان البعير يمضي قليلاً إلى الأمام، لكنه سرعان ما يقف، يشب فجأة في الهواء على أخفافه الثلاثة، بدت حركاته مفاجئة مثلما هي مخاتلة. في كل مرة كان الرجل الذي يقوده يتراجع، فقد كان يخشى الاقتراب منه، وقد فارقه اليقين مما يمكن أن يحدث بعد قليل، لكنه كان يحكم جذب الحبل كرة أخرى، بعد كل مفاجأة، فأفلح شيئاً فشيئاً في المضي بالدابة في اتجاه محدد.

توقفنا، أحكمنا غلق نوافذ السيارة، فقد تحلقنا صبية من المتسولين، علت على أصواتهم وهم يتكففوننا جعجعة البعير. في إحدى المرات وثب جانباً، في عنف بالغ، حتى أن الرجل الذي كان يقتاده أفلت منه الحبل، ابتعد النظارة، الذين وقفوا على مبعدة يرقبون المشهد. أثقل الخوف الهواء حول البعير، كان الشطر الأعظم ينبعث من الدابة ذاتها. سايره الرجل هوناً، التقط الحبل الذي تدلى على الأرض، وثب البعير في الهواء، متنحياً جانباً بحركة حادة، لكنه لم ينطلق من عقاله مرة أخرى، فاقتاده الرجل بعيداً.

ظهر رجل لم نكن قد لمحناه قبلاً، خلف الأطفال الذين تحلقوا سيارتنا، نحاهم جانبا، بفرنسية متعثرة أوضح لنا الأمر:

– البعير أصابه داء الكلب، هو خطير، يمضون به إلى المجزر، على المرء أن يكون حذراً جداً.

ارتسم الجد على ملامحه، وبين كل جملة في حديثه كانت جعجعة البعير تترامى إلينا..

أعربنا له عن شكرنا، مضينا بالسيارة محزونين، تخلل الحديث عن البعير المصاب بالكلب حوارنا خلال الأيام التالية، فقد أثرت فينا بعمق حركاته اليائسة، كنا قد مضينا إلى السوق متوقعين أن نرى المئات من الإبل الهادئة الخانعة. لكننا لم نلق في هذا الميدان الفسيح إلا بعيراً واحداً بقوائم ثلاثة، محتجزاً، يحيا الساعة الأخيرة من عمره، انطلقنا نحو البعير فيما هو يدافع عن حياته.

بعد عدة أيام، كنا نمر بموضع آخر من المدينة. ضرب المساء أطنابه، شرع الوهج القاني في التراجع عن سور المدينة. أبقيت السور في مدى الرؤية، مبتهجاً بالتغير الذي يعتري لونه تدريجياً. ثم لمحت في ظلال السور قافلة ضخمة من الإبل. أنيخ معظمها، فيما انتصب الباقي واقفاً في موضعه. كان رجال يعتمرون العمائم يمضون جيئة وذهاباً وسطها، منشغلين بمهامهم، ملتزمين الهدوء رغم ذلك. ارتسمت أمامنا لوحة للسلام والشفق، امتزجت ألوان الإبل بلون السور. ترجلنا من السيارة، سرنا وسط الإبل بدورنا. أنيخت في جماعات، يضم كل

منها اثني عشر بعيراً، أو يزيد، تحلقت أكواماً كالهضاب من العلف، راحت تهطع بأعناقها، مجتذبة العلف إلى أشداقها، تتراجع برؤوسها، وتعمل أضراسها فيه طحناً في هدوء. راقبناها عن كثب. الحق أقول لكم إن لها وجوها، بدت جميعها سواسية، مع ذلك فقد كانت متباينة تماماً، تذكر المرء بجمع من السيدات الانجليزيات، اللاتي تقدم بهن العمر، وقد عكفن على تناول أقداح الشاي معاً، يتحلين بالكبرياء، يتظاهرن بالضجر، لكنهن عاجزات تماماً عن إخفاء الخبث، الذي يرقبن به كل ما حولهن. قال صديقي الإنجليزي حينما أشرت بلباقة إلى هذا الشبه بنساء بلاده:

– تلك الناقة تشبه عمتي، على وجه اليقين.

سرعان ما رصدنا وجوها أخرى للشبه. امتلأنا تيهاً؛ إذ صادفنا هذه القافلة التي لم يحدثنا أحد بأمرها، أحصينا مائة وسبعة من الإبل.

دنا منا صبي، استجدانا بعض النقود، كان وجهه مسوداً، ضارباً للزرقة، شأن الحبل الذي أمسك به، إذ كان، فيما يوحي به مظهره، حادياً للإبل، واحدا ممن يدعون بـ «الزرق» الذين يقطنون إلى الجنوب من جبال الأطلس. قيل لنا إنهم يصبغون ملابسهم باللون الأزرق فيلتصق بجلودهم، ويجعلهم جميعاً، رجالا ونساء، زرق الملامح.. فهم بذلك العرق الوحيد الأزرق في الدنيا. بدا حادينا ممتناً للقطعة النقدية، التي نفحناه إياها، حاولنا أن نتعرف من خلاله بعض المعلومات عن القافلة، غير أنه لم

يكن يعرف من الفرنسية إلا كلمات قلائل، كانوا من «جولميم» وقد أقبلوا من مسيرة خمسة وعشرين يوماً. كان هذا هو كل ما فهمناه، تلك كانت بلدة في الصحراء على الطريق الممتد جنوباً، فرحنا نتساءل عما إذا لم تكن القافلة قد عبرت جبال الأطلس، وددنا لو عرفنا إلى أين تمضي، فما كان يمكن لأسفل السور أن يكون منتهى الرحلة، وقد بدا أن الدواب تعد نفسها للمزيد من المشاق.

حينما عجز الفتى، الذي جمعت صفحة وجهه بين السواد والزرقة، عن الإدلاء لنا بالمزيد، آثر مساعدتنا بأن يمضي بنا إلى كهل مديد القامة رشيقها، يعتمر عمامة بيضاء، ويلقى التوقير من الكافة. كان يتحدث الفرنسية بطلاقة، ورد على أسئلتنا بسلاسة. كانت القافلة من جولميم، وقد أنفقت في الرحلة خمسة وعشرين يوماً حقاً.

– وإلى أين تمضي من هنا؟

– لن تمضي، إذ ستباع الإبل هنا للذبح.

– للذبح؟

صدمتا كلانا.. حتى صديقي االذي يمارس الصيد في بلاده، بمزيد من الحماس. رحنا نفكر في الرحلة الطويلة التي قطعتها هذه الدواب، في بهائها المتألق وقت الغروب، في جهلها بمصيرها، بوجبتها التي عكفت على تناولها في سلام، وربما أيضا فيمن ذكرنا مرآها بهن.

– نعم، للذبح.

كرر الكهل قوله. كان لصوته وقع خشن، كحد سكين بليد.

– أيتناول الناس الكثير من لحوم الإبل هنا إذن؟

طرحت عليه السؤال، محاولاً أن أخفي بأسئلة تتناول الوقائع العادية مدى صدمتي.

– يتناولون مقادير هائلة!

– ماذا يشبه طعمه؟ لم يسبق لي تذوقه.

– لم تتناول لحم الإبل من قبل؟

ندت عنه ضحكة واهنة، تبعث على السخرية، كرر قوله:

– لم تتناول لحم الإبل من قبل؟

بدا جلياً أنه يعتقد أننا لانتناول شيئاً إلا لحم الإبل، امتلأ تيهاً بنفسه، كما لو كنا نتناول ذلك اللحم بدعوة منه، قال:

– لحمها طيب جداً.

– كم يبلغ ثمن البعير؟

– يختلف الأمر كثيراً بحسب البعير، فيتراوح الثمن بين ثلاثين ألف فرنك إلى سبعين ألفا هناك... بمقدوري أن أريك، عليك أن تلم بما أنت إزاءه.

مضى بنا إلى ناقة صهباء، بديعة الجمال، مسها بعصاه، التي لاحظتها الآن للمرة الأولى، قال:

– هذه ناقة جيدة، يبلغ ثمنها سبعين ألف فرنك، ومالكها يرتحل عليها بنفسه، وبمقدوره أن يمضي في استخدامها راحلة لسنوات طويلة، لكنه آثر بيعها، فبمقدوره كما هو واضح، أن يبتاع بالنقود راحلتين.

بدا ذلك واضحاً لنا، تساءلت:

– أأنت من جويميم.. هل أقبلت مع القافلة؟

نفى ذلك، ببعض الضيق، قال متباهياً:

– إنني من مراكش، أشتري الدواب، وأبيعها للجزارين.

لم تكن مشاعره إزاء الرجال الذين قطعوا هذه المسيرة كلها إلا الازدراء، أما عن حادينا الصغير فقد نحاه بقوله:

– إنه لايعرف شيئا.

لكنه أراد أن يعرف من أين قدمنا، فحدثناه على سبيل تبسيط الأمور بأننا معاً من لندن. ابتسم، بدا كأنما اعتراه قليل من الضيق، قال:

– كنت في فرنسا خلال الحرب.

بدا من تقدمه في العمر أنه يتحدث عن الحرب العالمية الأولى. أضاف مسرعاً، وقد خفض صوته قليلاً.

– صحبت بعض الإنجليز، لكني لم أستمر معهم، ماعادت الحرب كما كانت قبلاً، ليس الرجل هو الذي يعول عليه هذه الأيام، وإنما الآلة.

استطرد متحدثاً عن الحرب بأمور بدت مفعمة بالاستسلام:

– لم تعد الحرب كعهدها قبلاً.

وافقناه على قوله، بدا أن ذلك قد ساعده على تجاوز كوننا من انجلترا. ساءلته:

– هل بيعت الدواب جميعها بالفعل؟

– لا. ليس بمقدورهم بيعها جميعها، سيبقى ما يتخلف معهم، فيمضون به إلى «سطات» أتعرفها؟ هي في الطريق إلى الدار البيضاء، على بعد مائة وستين كيلومتراً من هنا. تلك سوق الإبل الأخيرة، سيباع ما يبقى هناك.

أجزلنا له الشكر، فودعنا دونما كبير احتفال، كففنا عن التجوال بين الإبل، فلم نعد نشعر بالميل إلى ذلك. كانت الظلمة قد ضربت أطنابها على وجه التقريب حينما تركنا القافلة.

لكن مشهد تلك الإبل لم يفارقني، أمعنت التفكير بها كارهاً، مع ذلك بدا الأمر كما لو كانت علاقة حميمة تربطني بها، منذ عهد بعيد. اختلطت ذكرى وجبتها الأخيرة بذلك الحديث عن الحرب، تعلقت أذهاننا بفكرة ارتياد السوق في المرة المقبلة لانعقاده في يوم الخميس، فعقدنا العزم على أن نمضي مبكرين، ولربما كان يحدونا أمل في أن نتلقى انطباعاً أقل وحشة

عن وجود الإبل هذه المرة.

بلغنا بوابة الخميس، لم يكن عدد الدواب التي ألفيناها كبيراً، بدت ضائعة في فراغ الميدان الشاسع الذي يستعصي على الملء. في أحد الجوانب لاحت الحمير مجدداً، لم نمض نحوها، وإنما مكثنا مع الإبل. لم يتجمع منها ما يزيد على الثلاث أو الأربع في المرة الواحدة، في مواضع أخرى ينتصب بعير واحد، يضج بالفتوة واقفاً إلى جوار أمة. بدت جميعها في البداية هادئة تماماً، انبعث الصوت الوحيد من جمع صغير من الرجال يتساومون بضرواة. مع ذلك فقد بدا لي أن الرجال لايثقون في إبل بعينها، حيث كانوا يتجنبون الاقتراب منها كثيراً، اللهم إلا إذا اضطرتهم الضرورة القصوى لذلك.

لم ينقض وقت طويل قبل أن يجذب انتباهنا بعير بدا وكأنه يبدي بعض المقاومة، راح ينخر، يهدر، يدفع برأسه في شتى الاتجاهات. ثمة رجل كان يحاول إناخته، معززاً جهوده بلطمات من عصاه في وجه مقاومة البعير. برز من بين الرجلين أو الثلاثة المنهمكين عند رأس البعير رجل بادي القوة، متين البناء، جهم الوجه، قاتم السمرة. كان متصلباً، بدت ساقاه كما لو كانتا مغروستين في الأرض، راح يجذب بحركات حادة من يديه حبلاً أنفذه في خطم البعير. خضب الدم الحبل والخطم معاً، تراجع البعير مجعجعاً، هادراً بين الحين والآخر. يضيق الخناق عليه أكثر فأكثر باستخدام الحبل، بذل جهداً هائلاً. للسيطرة عليه. كانا على حالهما هذا حينما دنا أحدهم منا، قال بفرنسية متعثرة:

– البعير يشم، يستطيع شم الجزار، باعوه ليذبح، يمضون

الآن إلى المجزر.

قال صديقي متشككاً:

– كيف يستطيع تشمم ذلك؟

– هذا هو الجزار، ذلك الذي يقف أمامه.

أشار إلى الرجل الفظ غميق السمرة الذي جذب انتباهنا، أضاف:

– جاء الجزار من المجزر، يفوح بدماء الإبل، البعير لا يحب ذلك. يمكن للبعير أن يكون خطيراً جداً، حينما يصاب بداء الكلب فإنه يأتي ليلاً، فيقتل النيام.

تساءلت:

– كيف يقتلهم؟

– حينما ينامون يأتي البعير، يدهسهم، حتى الاختناق في نومهم. المرء يجب أن يكون حذراً، قبل أن يصحو الناس يكون الاختناق قد وقع. نعم، للبعير أنف جيد. يرقد إلى جانب صاحبه ليلاً، ويشم اللصوص، فيوقظ صاحبه. اللحم طيب. المرء يجب أن يأكل لحم الإبل. هذ يعطي الشجاعة. البعير لايجب أن يكون بمفرده. لايمضي بمفرده. إذا أراد الرجل أن يمضي براحلته إلى المدينة لابد أنيجد راحلة أخرى تمضي معه. لابد أن يقترض راحلة، وإلا فلن يصل أبداً للمدينة براحلته، لأنها لاتريد أن تكون بمفردها. كنت في الحرب. جرحت. انظر... ها هنا!

قالها مشيراً إلى صدره.

كان البعير قد هدأ قليلاً، تلفت إلى المتحدث للمرة الأولى، بدا صدره ناحلاً وذراعه الأيسر متصلباً، بدا لي وجهها مألوفاً، رحت أسائل نفسي أين رأيته قبلاً.

- كيف تذبح الإبل؟

- تقطع الوريد الوداجي. لابد أن تريق دمها، وإلا لايسمح للمرء أن يأكل لحمها. لايباح للمسلم أن يأكلها إلا إذا لم يعد هناك دم. لا أستطيع الشغل بسبب هذا الجرح. أقوم بإرشاد السائحين هنا. حدثتكما الخميس الماضي، هل تذكران البعير المصاب بالكلب؟ كنت في «الصافي» حين نزل الأميركيون إلى الشاطئ. حاربناهم قليلاً. ثم نقلت للجيش الأمريكي. هناك مغاربة كثيرون كانوا في الجيش الأميركي. ذهبت إلى كورسيكا وإيطاليا مع الأميركيين، سافرت إلى هذه الجهات جميعاً. الألمان جنود جيدون. كانت «كازينو» أسوأ المواقع جميعها. الموقف كان سيئاً هناك، أصبت بهذا الجرح هناك. هل تعرف كازينو؟

تبين أنه يقصد «مونتي كاسينو». حدثني عن القتال الضاري الذي نشب هناك، وفيما هو عاكف على هذا غرق هذا الرجل، الذي كان قبلاً هادئاً مسيطراً على نفسه، في انفعال حاد، كما لو كان الأمر يتعلق بالنزعات القاتلة التي تجرف إبلاً أصابها الجنون. كان رجلاً مخلصاً يؤمن بما يقول. لكنه رصد مجموعة من الأميركيين وسط الدواب، فحول انتباهه سريعاً إليهم، وسرعان ما اختفى بالسرعة التي ظهر بها. لم يكن لديّ اعتراض على

ذلك، فقد غاب عن ناظري ومسمعي البعير الذي كف الآن عن جعجعته، وأردت أن أشاهده من جديد.

سرعان ماعثرت عليه. كان الجزار قد تركه في موضعه. كان قد أنيخ أرضاً، ولايزال بين الحين والآخر يدفع برأسه في هذا الاتجاه أو ذاك. زاد انتشار الدم وتدفقه من منخريه. أحسست بما يشبه الاعتراف بالجميل لتلك اللحظات الوهمية التي ترك فيها وشأنه. لكنني لم أستطع مواصلة التطلع إليه طويلاً. كنت أعلم مصيره، فانسللت مبتعداً.

كان صديقي قد ابتعد خلال حديث الدليل المكرور، باحثاً عن بعض معارفه من الإنجليز، بحثت عنه، فألفيته في الجانب الآخر من الميدان، وسط الحمير كرة أخرى، ربما أحس بأنه أقل ضيقاً هناك.

لم نأت على ذكر الإبل مرة واحدة بعد ذلك خلال إقامتنا في «المدينة الحمراء».

الأسواق

تعبق الأسواق بالروائح، تموج بالألوان، تسكنها برودة لطيفة، تفعم الرائحة البهيجة المارة، تتبدل بحسب طبيعة عروض التجارة. ليست هناك أسماء أو لافتات، لا توجد واجهات زجاجية، يعرض كل ما يمكن للمرء أن يرغب في ابتياعه. ليس بمقدورك إطلاقاً أن تعرف مسبقاً كم سيتكلف ماترغب في شرائه، فلا الأسعار مثبتة على البضائع، ولاهي قريبة بحال من الثبات.

تتجاور كل المحال والحوانيت التي تباع بها سلعة بعينها... عشرون أو ثلاثون أو مايزيد على ذلك جنباً إلى جنب. لصناع الحبال مكانهم، ولصناع السلال موضعهم، لبعض تجار السجاجيد فسحات تعلوها عقود مقنطرة، تمضي عبرها مثلما تجتاز مدينة قائمة بذاتها، توجه إليك الدعوات لإلقاء نظرة عليها. يتجمع الصاغة حول فناء خاص بهم، في العديد من محالهم الضيقة يمكنك أن تلمح الرجال عاكفين على العمل. تجد كل شيء.. لكنك دائماً تجد الشيء الواحد متكرراً مرات عديدة.

ستعثر على حقيبة اليد الجلدية، التي تنشدها، معروضة في عشرين محلاً مختلفاً، أحدها لصق الآخر، يقف رجل وسط

بضائعه، ليس هناك كبير فراغ، وهو يضعها جميعها حوله، فما تعود به حاجة إلى مد يده ليلتقط أياً من حقائبه الجلدية. إذا ما حدث أن نهض لاستقبالك، مالم يكن العمر قد علا به، فإن ذلك لا يعدو أن يكون من قبيل المجاملة. لكن الرجل الذي يبدو مختلفاً تماماً بالمحل المجاور، والذي يبدو مختلفاً تماماً، يجلس وسط بضائعه، ويتكرر الأمر على هذا النحو ربما على امتداد مائة متر، على امتداد جانبي الممر المعرش. يبدو الأمر كما لو كان أضخم أسواق المدينة هذه، بل أكبر أسواق المغرب الجنوبي بأسره، يعرض عليك مرة واحدة كل مالديه من منتجات جلدية لكأنما يتيه هذا المعرض عجباً، فالعاملون به يعرضون ما يستطيعون إنتاجه، لكنهم كذلك يستعرضون الكم المتاح مما ينتجون. يبدو نتيجة لذلك كما لو أن الحقائب ذاتها تدرك أنها ثروة، فتتباهى في تألقها أمام عيني المار. ولن يكون أمراً مدهشاً أن تشرع الحقائب فجأة في التحرك جميعها بإيقاع راقص في وقت واحد، كاشفة في رقصة من رقصات الطقوس العربيدة، مرحة الألوان، عن الفتنة المستكنة في أعماقها..

يعيد المار بهذا السوق، بحسب مزاجه النفسي، في كل مرة يقوم فيها بجولة جديدة، خلق إحساس بنوعية هذه السلع، بكونها معاً في انفصالها عن كل ما يباينها، يحدث نفسه قائلاً: «أود اليوم اكتشاف عالم العطور» عندئذ يفعمه مزيج الروائح البديعة، تمتد أمام ناظريه سلال الفلفل الأحمر الهائلة. «اليوم تراودني الرغبة في اقتناء بعض الأصواف المصبوغة» فتتدلى أمامه وحوله مقاطع الصوف قرمزية، قاتمة الزرقة، فاقعة الصفرة، وكابية

السواد. «أريد اليوم التفرج على السلال ومشاهدة كيفية صنعها».

من المدهش أن يلاحظ المرء أي مكانة تحظى بها هذه الأشياء التي أبدعتها أيدي الرجال، فهي ليست جميلة دائماً، وقد بدأ المزيد والمزيد من المنتجات ذات المنشأ المريب يشق طريقه إلى هنا، من بينها واردات من دول الشمال أنتجت آلياً، لكنها لاتزال تطرح نفسها بالطريقة العتيقة. إضافة إلى المحال التي تقتصر على البيع وحده، هناك العديد منها حيث يمكنك الوقوف ومشاهدة تصنيع المنتجات، تتابعها منذ البدء، فتبتهج لمرآها، ذلك أن جانباً من الكآبة التي تفعم حياتنا العصرية يتمثل في أننا نحصل على كل شيء عن طريق التسليم عند بابنا، معداً للاستهلاك، كما لو كان قد جاء من رحم آلة استحضار سحرية مقيتة. لكنك هنا تستطيع مشاهدة صانع الحبال، عاكفاً على عمله، وقد تكوم إلى جواره ما جدله منها. في محال ضيقة تتجمع أرهاط من الصبية الصغار، لايتجاوز كل منها ستة أو سبعة، عاكفين على المخارط، فيما يقوم فتية أكبر سناً بتجميع الأجزاء التي يناولهم الصبية إياها، فيحولونها إلى مناضد خفيضة صغيرة. يصبغ الصوف بألوانه البديعة المتألقة أمام عينيك. ثمة صبية في كل مكان يقتعدون الأرض، ينسجون أغطية للرأس، في أنماط مرحة جذابة.

تجري أنشطتهم جهاراً «عارضة» ذاتها على النحو نفسة الذي تتبدى به السلع المنتجة. وفي مجتمع يخفي الكثير ويحجب في غيرة عن عيون الأجانب داخل دوره وقدود ووجوه نسائه، بل ومساجده، فإن هذا الانفتاح البالغ، فيما يتعلق بما

ينتج وبما يبيع، يبدو مثيراً للانتباه بصورة مضاعفة.

أما ما أردت معرفته حقاً فهو مسار عملية المساومة، لكني كنت ما أكاد ألج الأسواق حتى تضل عيناي مؤقتا عن المساومة، وترحلان وراء الأشياء موضع التساوم، وقد لايبدو بالنسبة للمراقب الساذج أن ثمة مايدفع المرء إلى التوجه إلى تاجر مغربي بعينه، بينما إلى جواره عشرون آخرون، لا تختلف سلعهم كثيراً عن بضائعه. بمقدورك أن تمضي من تاجر إلى آخر، ثم تعود كرة أخرى إلى الأول، وليس بوسعك أن تعلم مسبقاً على الإطلاق من أي حانوت ستبتاع ماتريد، إذ ثمة مجالات لانهاية لها للتغيير.

ليس هناك مايفصل المار عن البضائع، لا أبواب ولا نوافذ.. لايعلن التاجر الجالس وسط سلعه عن اسمه، وبمقدوره، على نحو ما سبق لي القول، أن يمد يده ليصل إليها جميعها دونما عناء، ويجد المار السلع جميعها معروضة في لطف بين يديه، قد يمسك بها طويلاً، يقلبها، يناقش مدى جودتها، يطرح أسئلة بشأنها، يعرب عن شكوكه، وإذا ماعنّ له ذلك يروي قصة حياته أو تاريخ قبيلته أو تاريخ العالم بأسره دون أن يبتاع شيئاً، وثمة صفة يعتصم بها الرجل الجالس وسط بضاعته قبل أي شيء آخر: الهدوء البالغ. يجلس في موضعه، دون أن يتاح له إلا مجال محدود وفرصة للإيماءات والتلويحات، وهو ينتمي إلى بضاعته مثلما تنتمي إليه، إنه لا يحزمها وينحيها جانباً في موضع ما، وإنما يرخي يديه أو عينيه عليها دوماً. ثمة حميمية فاتنة تربط الرجل ببضائعه يرعاها، يرتبها، وكأنما هي عائلته وافرة العدد.

لا الضيق يعتريه، ولا الحرج يأخذ بمجامعه، لأنه يعرف

قيمتها على وجه الدقة، ذلك أنه يبقي هذا طي الكتمان، ولن يقدر لك على الإطلاق أن تجد سبيلاً إليه. يضفي ذلك لمسة من الغموض الخلاب على عملية المساومة. وبمقدوره هو وحده أن يحدد إلى أي مدى دنوت من سره، وهو ضليع في الحيلولة دون نجاح أي اندفاع نحوه، من ثم فإن المسافة التي تحمي كنزه الثمين لاتتعرض أبداً لتهديد الاقتحام. ومما يشرف المشتري ألا يقع فريسة للخديعة، لكن تلك ليست بالمهمة اليسيرة، لأنه يتلمس دربه في الظلام. وليس ثمة ماهو ممتع في القيام بالشراء في بلاد تسودها الأخلاق فيما يتعلق بالأسعار وحيث تشكل لأسعار الثابتة القاعدة العامة ؛ ذلك أن بمقدور أي أحمق أن يمضي للعثور على ما يحتاجه، وبوسع أي أبله يستطيع قراءة الأرقام أن يجد سبيلاً لتجنيب الوقوع ضحية للغش.

أما في هذه الأسواق فإن السعر الذي يطرح في بداية الأمر يشكل لغزاً، يستعصي سبر أغواره، فلا أحد يعلم مسبقاً ما سيؤول إليه الأمر، ولا حتى التاجر، ذلك أنه في كل حالة هناك العديد من الأسعار، وكل منها يرتبط بموقف مختلف زبون مختلف، وقت مباين من النهار، يوم مغاير من الأسبوع. هناك أسعار للقطعة الواحدة، وأخرى لقطعتين معاً، وثالثة لما هو أكثر من ذلك.، ثمة أسعار للأجانب الذين يزورون المدينة ليوم واحد، وأخرى للأجانب الذين مكثوا هنا ثلاثة أسابيع. هناك أسعار للفقراء، وأسعار للأغنياء، والأسعار المخصصة للفقراء هي، بالطبع، الأسعار الأكثر ارتفاعاً، حتى ليوشك المرء على الاعتقاد بأن هنالك من أنواع الأسعار أكثر مما هناك من صنوف الناس في هذه الدنيا.

مع ذلك، فإن هذا لايعدو أن يكون بداية مسألة غاية في التعقيد، لا يعرف من نتيجتها شيء على الاطلاق مسبقاً. يقال إن عليك أن تهبط إلى ثلث الثمن الأولي، لكن ذلك ليس إلا تقديراً تقريبياً وضرباً من التعميمات المضجرة، التي يتم من خلالها التخلص من أولئك الذين إما أنهم لايرغبون أو لا يستطيعون التحليق إلى الرحاب البديعة لطقس المساومة العتيق هذا.

من المرغوب فيه أن تدوم مفاوضات الشد والإرخاء تلك أبداً مصغراً، حافلاً بالأحداث، ويستشعر التاجر بهجة في الوقت الذي تستغرقه لتتم عملية الشراء. ينبغي أن تكون الحجج التي تستهدف جعل الآخر يتراجع شاملة عميقة، لافتة للنظر، ،ومثيرة للخيال. بمقدورك ادعاء الترفع، أو إعمال سلاح البلاغة، والأفضل أن تلجأ للأمرين معاً، ويستخدم الطرفان الترفع لإظهار أنهما لايعلقان كبير أهمية على البيع أو الشراء، أما البلاغة فتغني في تفكيك حزم الطرف الآخر. بعض الحجج لايثير إلا السخرية، البعض الآخر يصيب في الصميم. عليك أن تجرب كل شيء، قبل أن تستلم. ولكن حتى إذا كان وقت الاستسلام قد حان، فإن ذلك ينبغي أن يتم فجأة، وعلى غير توقع، حتى تصيب الحيرة خصمك، وللحظة يكشف عن أعماقه أمام عينيك. بعض التجار ينزع عنك سلاحك بالصلف والآخر باللطف. كل الحيل مسموح بها، لكن التراخي في الانتباه أمر لاموضع له على الإطلاق.

في المحال الفسيحة بما يسمح بالسير فيها غالباً ما يرجع

البائع إلى رأي ثانٍ قبل أن يعلن استسلامه، يقف الرجل الذي يراجعه، والذي يمثّل نوعاً من العراب بالنسبة للأسعار في الخلف لا يشارك في وقائع المساومة، ينتصب في موضعه، لكنه لايساوم بنفسه، وإنما تتم مراجعته في القرارات النهائية، وبمقدوره، في مجافاة لإرادة البائع، أن يحظر الانحرافات المبالغ فيها بالنسبة للثمن. لكن أحداً لايفقد ماء وجهه، طالما أن «العراب» الذي لم يشارك في المساومة هو الذي قام بهذا.

صيحات العميان

ها أنذا أحاول أن أجترح تصوير شيء ما، وما إن يلفني الصمت حتى أدرك أني ماقلت شيئاً على الإطلاق. ثمة مادة دبقة، نورانية، على نحو بديع، بقيت في أعماقي تتحدى الكلمات. وهي اللغة لتي لم أتفهمها هناك، والتي من المحتم أنها الآن تجد ترجمتها في دواخلي؟ هناك أحداث، صور، وأصوات بدأ معناها الآن ينبعث حياً، تلك الكلمات التي لم تعرف التسجيل ولا الصياغة التي تكمن فيما وراء الكلمات، أبعد غوراً، أكثر التباساً من الكلمات.

ثمة حلم، رجل يفقد معرفته بلغات الدنيا، حتى مايعود ثمة مكان على الأرض يفهم مايقوله أهله.

ما الذي يكمن في غور اللغة؟ ما الذي تخفيه؟ ما الذي تسلبه من المرء؟ خلال الأسابيع التي أمضيتها في مراكش لم أبذل محاولة للإلمام بالعربية، أو بأي من لغات البربر، فقد رغبت في ألا أفقد شيئاً من قوة هذه الصيحات غريبة الوقع. أردت أن تؤثر فيّ الأصوات بقدر ما يكمن في قدرتها، دون أن تخففها معرفة معيبة ومصطنعة من جانبي. لم أكن قد قرأت شيئاً عن هذه

البلاد، كانت عاداتها مجهولة لي مثل شعبها، وتهاوى عني القيل، الذي يلتقطه المرء على امتداد حياته عن كل بلد وعن الشعوب جميعا، خلال الساعات القليلة الأولى.

لكن كلمة «الله» بقيت، لم يكن ثمة سبيل للالتفاف حول هذا، وقد تسلمت بها لذلك الجانب من تجربتي الذي كان أكثر شمولاً، إصراراً، وإلحاحاً في حضوره: لقاء العميان. حينما يسافر المرء فإنه يقبل كل شيء، يدع الحنق وراءه في وطنه، ينظر، يصغي، تدفعه إلي الحماس أكثر الأمور فظاعة، بسبب حدتها، ذلك أن الرحالة الجيد رجل بلا قلب.

في العام الماضي، ولدى دنوي من ڤينا، بعد غياب دام خمسة عشر عاما مررت «بسوق العميان» أو بالانجليزية «blind market» [1] كقولك سوق العبيد، وهو مكان لم يخطر وجوده لي على بال قط. فاجأني الاسم، مثلما لسعة سوط، وظل عالقاً بذاكرتي من يومها. ألفيت نفسي هذا العام فجأة، لدى وصولي إلى مراكش، وسط العميان. ثمة مئات منهم، أكثر مما يستطيع المرء أن يعد، معظمهم يتكففون الناس. يقف جمع منهم، في بعض الأحيان ثمانية، في البعض الآخر عشرة، متجاورين صفاً واحداً بالسوق، تترامى إلى البعيد هينمتهم الخشنة، المكرورة، بلا انتهاء. وقفت بإزائهم، جامداً مثلهم، دون أن أتبين على وجه اليقين ما إذا كانوا قد استشعروا وجودي أم لا. كان كل رجل يمسك وعاء خشبياً للصدقات، وحينما يلقي أحد بشيء لهم،

---

(١) لعل القارئ يذكر أن كانيتي يؤثر الكتابة بالألمانية، رغم تضلعه في ثماني لغات من بينها الانجليزية والفرنسية فضلاً عن عدد من لغات شرق ووسط أوروبا. (المترجم)

فإن القطعة النقدية الممنوحة تنتقل من كف إلى أخرى، يتحسسها الرجال جميعاً، يعجمون عودها، قبل أن يدسها أحدهم، تلك مهمته، في كيس للنقود. إنهم يتحسسون معاً، مثلما يهينمون ويدعون سوياً.

يهب العميان للمرء اسم الله، كأنما بوسع المرء تقديم الصدقات أن يقول بأحقيته له، يبدأون باسم الله، يختتمون به، يكررون اسمه عشرة آلاف مرة كل يوم، تتضمن صيحاتهم جميعها تصريفاً لاسمه، لكن الهتاف الذي يستقرون عليه يظل هو ذاته دوماً، وما نداءاتهم إلا توشيحات عربية صوتية تدور حول اسم الله، ولكن ما أعظم قدرتها على التأثير، بالمقارنة بالزخرفات العربية المنظورة. بعضهم يعتمد على اسمه وحده فلا يهتفون بشيء آخر، ثمة تحدٍ مخيف يكمن في قرار هذا، فالله يبدو لي مثلما سور يقتحمونه دائماً في الموضع ذاته. أُعتقد أن هؤلاء المتكففين إنما يمسكون عليهم حياتهم بتراتيلهم، بأكثر مما يبقون عليها بعائد سؤالهم الناس.

إن تكرار الصيحة ذاتها يميز من تصدر عنه. يلتصق بذاكرتك، تتعرفه، فيظل هنالك أبداً، يمكث هناك بوضعية بالغة التحديد: من خلال صيحته لن تتعلم المزيد منه، فهو يدرع نفسه، وصيحته أيضاً هي حده في هذا المكان الواحد، فإنه هو مايصيح به، لا أقل، ولا أكثر: شحاذ، أعمى. لكن الصيحة بدورها تضاعف كذلك، فالتكرار السريع المنتظم يجعل منه جمعاً من الناس. ثمة طاقة غريبة على السؤال تكمن فيه، فهو يسأل باسم الكثيرين، ويجمع الصدقات لهم جميعاً: راعوا

المساكين! «راعوا المساكين! الله يكرمكم عن كل مسكين تعطونه».

يقال إن الفقراء سيدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، ومن خلال تقديم الصدقات فإنك تبتاع قطعة من الجنة من الفقراء. وحينما يموت أحد فإنك «تتبعه على قدميك، مردداً الدعاء أو دون ترديده، سريعاً إلى القبر، لعل الكرامة تحل بالميت عاجلاً، ويرتل القراء المكفوفون القرآن، طلباً للرحمة له».

بعد عودتي من مراكش، اقتعدت الأرض ذات مرة مغمض العينين، متربعاً في ركن من حجرتي، حاولت أن أردد «الله! الله! الله! «مراراً وتكراراً لمدة نصف ساعة بالسرعة وبالارتفاع المناسبين. حاولت أن أتصور نفسي عاكفاً على ترديدها نهاراً بكامله وجانباً من الليل، أغفو قليلاً، أعاود الترتيل كرة أخرى، عاكفاً على الشيء نفسه أياماً، أسابيع، شهوراً، أعواماً، دابأ نحو الكهولة فالشيخوخة، على هذا النحو، ومتشبثاً في عناد بتلك الحياة،حانقاً إن أزعجني طارئ في غمارها، دون أن استشعر حاجة إلى شيء آخر، عاكفاً عليها تماماً.

فهمت السحر الكامن في حياة تجرد كل شيء إلى أبسط ضروب التكرار. ترى أي اختلاف عن هذا في حياة الحرفيين الذين شهدتهم عاكفين على عملهم في محالهم الصغيرة؟ أي فارق في جدال التجار؟ في خطى الراقص؟ في الأقداح التي لاحصر لها من الشاى بالنعناع التي يتناولها الزوار هنا؟ أي قدر من الاختلاف في المال؟ أي قدر منه في الجوع؟

أدركت من هم أولئك العميان حقاً: إنهم قديسو التكرار، لقد تآكل من حياتهم معظم ما لايزال يراوغ التكرار في حياتنا، هارباً منه. هناك البقعة التي يقعون أو يقفون بها، ثمة الصيحة التي لا تتبدل، هنالك العدد المحدود من القطع النقدية، التي بمقدورهم أن يأملوا في الحصول عليها، هناك المحسنون، بالطبع، الذين يختلفون، لكن العميان لا يرونهم، وطريقتهم في الإعراب عن شكرهم تؤكد، على وجه اليقين، أن المحسنين بدورهم سواسية جميعا.

لعاب الشحاذ

كنت قد ابتعدت عن جمع من الشحاذين العميان، يضم ثمانية منهم وهينمتهم عالقة بأذني لاتزال، وما مضيت إلا خطوات قلائل حينما لفت انتباهي عجوز أشيب، يقف وحيداً، وقد تفخج قليلاً، أمال رأسه هوناً إلى أحد الجانبين، وراح يعمل فكيه مضغاً. كان كفيفاً بدوره، وإذا ماحكم المرء من الخرق التي تكسوه فقد كان يسأل الناس أيضاً. لكن خديه كانا لحيمين، تضرجهما الحمرة، وشفتاه تطفحان عافية واخضلالاً. راح يمضغ شيئاً ما، وقد أغلق فمه على مهل، وتعبير مرح يتمدد على ملامحه، مضى يمضغ مدققاً في المضغ، كما لو يتبع تعليمات صدرت له في هذا الشأن. بدا جلياً أن ذلك يجعله يستشعر سروراً عميقاً. فيما انصبت عليه نظراتي لفت نظري لعابه، الذي كان وفيراً. كان ينتصب واقفاً أمام صف من المحال، تراصت فيها تلال من ثمار البرتقال المعروضة للبيع. حدثت نفسي بأنه من المحقق أن أحد أصحابها قد منحه ثمرة برتقال، وأنه كان عاكفاً

على مضغها. تراخت يده اليمنى، غير بعيد عن جسمه، كانت أصابع كفه مبسوطة جميعها، أحدها بعيداً عن الآخر، بدت كما لو أن فالجاً ضربها، فما عاد بمقدوره أن يضمها.

أحاط فراغ ليس باليسير بالعجوز، الأمر الذي بدا لي مدهشاً في هذه البقعة المزدحمة، بدا كما لو كان قد اعتاد أن يكون وحده دائماً، وأنه لايرغب في مفارقة وحدته تلك. ظللت أرقبه عامداً، وهو عاكف على المضغ، وقد عقدت العزم على الانتظار ورؤية ما يقع حينما ينتهي مما هو عاكف عليه، استغرق ذلك وقتاً طويلاً، وما كان قد قدر لي قط أن أرى رجلاً يعمل فكيه بمثل هذه الحماسة والاستغراق، أحسست بفمي يتحرك هوناً. رغم خلوه مما يمكن مضغه، داخلني ما يوشك أن يكون هولاً إزاء نشوته، التي بدت لي أكثر وضوحاً من أي شيء قدر لي أن أراه متعلقاً بفم إنسان، لم يفعم حرمانه من نعمة البصر قلبي بالإشفاق، بدا لي رابط الجأش، قانعاً. لم يتوقف مرة واحدة ليتكفف الناس، مثلما يفعل السائلون الآخرون جميعاً. لربما كان لديه ماينشده، ربما لم تكن به من حاجة إلى شيء آخر.

حينما فرغ مما كان عاكفاً عليه لعق شفتيه عدة مرات. مد كفه بأصابعها المتباعدة إلى الأمام قليلاً، انطلق بصوت خشن يردد دعاءه. دنوت منه، في غير قليل من الخجل، تركت قطعة نقد معدنية في كفه المبسوطة. ظلت الأصابع على تباعدها، فما كان بوسعه حقاً أن يضمها. وئيداً رفع يده نحو وجهه، ألصق العملة بشفتيه البارزتين، والتقمها. ما إن ولجت فيه حتى شرع في المضغ كرة أخرى، مضى يديرها في هذا الجانب وذاك من فمه، بدا لي أن بمقدوري أن أتتبع حركاته: هي ذي العجلة إلى اليمين، هي ذي إلى اليسار، هوذا الآن عاكف على المضغ، مثلما كان قبلاً.

دهشت، التبس عليّ الأمر، تساءلت عما إذا لم أكن

مخطئاً، لربما اختفت العملة في مكان ما ولم ألحظها، عدت للانتظار من جديد. حينما علك العملة بالنشوة ذاتها، وانتهى منها، أطلت من بين شفتيه، بصقها في يده اليسرى، التي رفعها لذلك، تدفق معها الكثير من اللعاب، ثم دسها في جراب يتدلى إلى يساره.

حاولت قمع تقززي إزاء هذه الواقعة بفجاجتها، ما الذي يمكن أن يكونه أشد تلوثاً من النقود؟ لكنني لست هذا العجوز. فما أثار تقززي حلق به إلى رحاب لنشوة. ألم تسبق لي رؤية أناس يقبلون النقود؟ يقيناً أن للعاب الوافر دوراً يضطلع به في هذا الأمر، وقد بدا جلياً أنه يتميز عن الشحاذين الآخرين بلعابه الوفير. عكف طويلاً على العلك قبل أن يتكفف الناس، أياً ما كان ذلك الذي تناوله قبلاً، فما من أحد يمكن أن يستغرق مثل هذا الوقت الطويل في القيام بذلك، ثمة مغزى مافي حركات فمه. أم تراه تلقف بفيه عملتي وحدها؟ أتراه استشعر في راحته أنها هبة أكبر مما اعتاد تلقيه، فأراد أن يعرب عن شكره بصفة خاصة؟ انتظرت لعلي أرى ما سيحدث عقب ذلك، لم أجد الانتظار عصي الاحتمال، كنت مذهولاً، مستثار الفضول، فما عاد بوسعي إلا الاكتراث للعجوز. راح يكرر دعاءه عدة مرات. مر عربي، وضع في راحة العجوز قطعة أصغر كثيراً من تلك التي نفحته إياها، فدفع بها إلى فمه، دونما تردد، شرع كعهده يلوكها، لربما لم يلكها طويلاً هذه المرة، لفظها من فيه كرة أخرى، مع الكثير من اللعاب، دسها في جرابه، تكرر الأمر ذاته عدة مرات، نفحه المارة عملات أخرى، بعضها بالغ الصغر، فتكررت الوقائع ذاتها عدة مرات. ازدادت حيرتي، كلما أمعنت النظر فيه تراجع فهمي لإتيان

ماهو بسبيله. غير أن الشك انجاب عن أمر واحد: أنه يأتي هذا الذي يأتيه دائماً، كانت تلك عادته، طريقته الخاصة في سؤال الناس، وأولئك الذين يقدمون له الهبات يتوقعون هذا التعبير عن الاهتمام الذي يأتيه بفمه، الذي بدا لي أكثر حمرة في كل مرة يفتحه فيها.

فاتني أن أدرك تطلع الناس إليّ، من المحتم أنني بدوت مثيراً للسخرية، لربما، من يدري، كنت أقف فاغر الفم هناك دونما حراك. فجأة تقدم رجل حجبه عن ناظري تل من ثمار البرتقال نحوي، قال متلطفاً:

– إنه «مرابط».

كنت أعلم أن للمرابطين كرامات، وأن الناس يعزون اليهم قدرات خاصة، بثت هذه الكلمة الرهبة في نفسي، أحسست أن تقززى يتضاءل في التو، تساءلت على استحياء:

– لكن لِمَ يضع النقود في فمه؟

– هذا شأنه دائماً.

قالها الرجل، كما لو كان ذلك أكثر الأمور تلقائية في الدنيا. ابتعد عني، عاد إلى حيث كان وراء ثماره. عندئذ فحسب لاحظت أن وراء كل محل زوجين أو ثلاثة أزواج من العيون تصب نظراتها عليّ. كنت أنا المخلوق المثير للدهشة الذي يقف طويلاً دون أن يفقه شيئا.

أحسست مع الإدلاء لي بهذه المعلومات بأني قد صرفت

من هذه الحضرة، فلم أمكث في موضعي، رحت أحدث نفسي بأن المرابط رجل من ذوي الكرامات، وكل ماله صلة به تمسه هذه الكرامات بما في ذلك لعابه، فهو في غمار مس نقود المحسنين بلعابه يخلع عليها بركة، على هذا النحو يزيد من سعة ما أحرزوه بالعطاء في النعيم. كان على يقين من دخوله الجنة، يحظى بشيء يملك أن يهبه تمس حاجة الناس إليه بأكثر مما تمس حاجته إلى نقودهم. الآن أدركت سر ذلك الانشراح الذي وسم وجهه الكفيف، والذي يميزه عن الشحاذين الآخرين، الذين سبقت لي رؤيتهم.

انصرفت، لكن الرجل علق بذهني، حتى إني حدثت عنه أصدقائي جميعاً، لم يسبق لأحدهم أن التفت إليه، أحسست أنهم يتشككون في صدق ما أقول، مضيت في اليوم التالي إلى البقعة ذاتها، لكنه لم يكن هناك، بحثت في كل مكان، لكنه لم يعد، لربما كان يقيم وحيداً في مكان ما من الجبال، ولا يهبط المدينة إلا نادراً. كان بمقدوري أن أسائل باعة البرتقال عنه، لكني خجلت من مواجهتهم، فهو لايعني بالنسبة لهم ماعناه لي، وفيما لم أنفر إطلاقاً من محادثة اصدقائي الذين لم يروه عنه، حاولت النأي به عن الناس الذين يعرفونه حق المعرفة، والذين كان بالنسبة لهم شخصاً طبيعياً، ومألوفاً، ما كانت له معرفة بي، ولربما حدثوه عني.

قدر لي أن أراه مرة أخرى بعد أسبوع في مساء السبت، كان يقف أمام الحانوت ذاته، لكن فمه كان خالياً، ولم يكن عاكفاً على المضغ. ردد دعاءه، نفحته قطعة من النقود المعدنية،

انتظرت لأرى ما سيحدث لها، سرعان ما راح يلوكها في دأب كرة أخرى.، فيما كانَ عاكفاً على هذا أقبل رجل ناحيتي وردد هراءه المألوف.

– هذا «مرابط» كفيف، يلقم العملة ليرى كم أعطيته.

ثم قال شيئا بالعربية للمرابط، وأشار إليّ. كان العجوز، وقد انتهى لوكه للعملة، قد لفظها من فيه، التفت ناحيتي، وقد استضاء، وجهه، ردد دعاء لي، كرره ست مرات. أما الود والدفء اللذان انتقلا إليّ، وهو يحادثني، فلم يقدر لي أبداً أن أشعرني بهما إنسان قبله.

الدار الصامتة
والأسطح الخاوية

لكى تشعر بالألفة في مدينة غريبة ينبغي أن تكون لك غرفة قاصرة عليك، يحق لك أن تعكتف فيها، تنفرد بنفسك حينما تتعاظم جلبة الأصوات الجديدة، وغير المفهومة، بأكثر مما ينبغي. يجب أن تكون هادئة، لا يرصدك أحد بينما تلوذ بها، لايراك أحد وأنت تغادرها. خير الأمور أن تدلف إلى زقاق، تتوقف عند باب يستكن مفتاحه في جيبك، تفتحه دون أن يسمعك إنسان.

تدلف إلى برودة الدار اللطيفة، ترتج الباب وراءك، تسود العتمة، للحظة لا تستطيع أن ترى شيئاً، تبدو كواحد من العميان في الميادين والممرات التي خلفتها لتوك وراءك، لكنك سرعان ما تسترد قدرتك على الإبصار، تلمح درجاً حجرياً يرقى بك إلى الطابق الأول، في أعلاه تجد هرة تجسد الهدوء الذي طالما تقت إليه، يغمرك العرفان نحوها، إذ ظلت على قيد الحياة، إذن فوجود حياة هادئة أمر ممكن، تجد قوتها دون أن تصيح «الله» آلاف المرات في اليوم الواحد، لا تلقى تشويها، لا ترغم على أن تذعن لقدر مخيف، قد يكون الأمر قاسياً، لكنها لاتبوح بذلك.

تصعد، تهبط، تتنفس في قلب الصمت، ماذا حل بالنشاط الرهيب في اهتياجه؟ النور الضاري والأصوات المنكرة؟ مئات الوجوه التي تتراكم فوقها مئات أخرى؟ قليلة هي النوافذ التي تطل، في هذه الدور، على الشارع، في بعض الأحيان لاتوجد هذه النوافذ بالمرة، كل شيء ينفتح على الفصاء، الذي ينفتح بدوره على السماء. عبر الفناء وحده تربطك صلة رقيقة، بهيجة بالدنيا من حولك.

لكن بمقدورك أن تصعد إلى السطح، وأن تشاهد الأسطح جميعها عبر المدينة، في لمحة واحدة. يراودك شعور بالاستواء، بأن كل شيء أقيم صرحه في مجموعات من الشرف العريضة، نحس بأن بمقدورك أن تخطو فوق المدينة بأسرها، لا تمثل الحارات عقبة، فليس بمقدورك أن تلمحها، فتنداح منك إلى أغوار النسيان، تأتلق جبال الأطلس قاب قوسين أو أدنى، فتوشك أن تظلنها جبال الألب، لولا أن الضياء فوقها أكثر نصاعة، ولولا وجود العدبد من أشجار النخيل بينها وبين المدينة.

لاتشبه المنارات التي تسمق هنا وهناك أبراج الكنائس، تتسم بالرشاقة، لكنها ليست مستدقة الأطراف، فلها الاتساع ذاته عند قاعدتها وقمتها، والمهم فيها هو تلك المنصة الذاهبة في الهواء التي يؤذن فيها للصلاة، تميل المنارة في الشبه إلى الفنار، لكن الصوت فيها يحل محل النور.

تعشش السنونوات فوق الأسطح،. فتبدو مدينة ثانية، اللهم إلا أن الأمور هنا تجري سريعاً مثلما تقع وئيداً في الشوارع التي

تعج بالناس. فهذه السنونوات لاتخلد للراحة أبدا، وتتساءل عما إذا كانت تعرف النوم على الإطلاق. وصفات الكسل والاعتدال والوقار لا وجود لها في عالمها، فهي تقتنص رصيدها محلقة، وربما تبدو الأسطح في خوائها بالنسبة لها أرضاً أفلحت في غزوها.

لاينبغي لك، كما لعلك تعلم، أن تظهر على السطح، لقد ظننت أن بوسعي أن أمتع عيني هناك برؤية نسوة الأساطير، من هناك سأطل على أفنية الجيران، وأصغي إلى ما يجري بينهم. في المرة الأولى التي صعدت فيها إلى سقف دار صديقي كنت كلي انتظاراً، وطالما واصلت التحديق في البعيد، نحو الجبال، وعبر المدينة. بدا مغتبطاً، كان بمقدوري أن استشعر تباهيه بقدرته على أن يريني شيئاً في مثل هذا الجمال. لكنه بدأ يتململ حينما أطلت التحديق بعيداً وانصب اهتمامي على ماهو قريب منا. ضبطني متلبساً بالنظر إلى فناء الدار المجاورة، حيث أدركت مبتهجاً أن ثمة أصوات نساء تنبعث في حديث بالأسبانية.

قال:

– لاسبيل إلى هذا هنا، ينبغي ألا تفعل هذا. لقد تلقيت كثيراً تحذيرات من إتيانه، إذ ليس مما يليق أن ترقب ما يحدث في دار جارك، ويعد ذلك من قبيل الافتقار إلى الأخلاق الحميدة. بل في الحقيقة لا ينبغي للمرء أن يعتلي السطح بالمرة، وذلك ينصرف على وجه الدقة إلى الرجال.، ففي بعض الأحيان تصعد الوطنيات إلى الأسطح. وهن لايرغبن في أن

يزعجهن أحد.

– لكني لا أرى امرأة واحدة هناك.

– لربما شوهدنا، عندئذ تسوء سمعة المرء، كذلك لاينبغي للمرء أن يبادر بالحديث إلى امرأة محجبة في الطريق.

– وماذا إن كنت أريد السؤال عن الطريق؟

– عليك بالانتظار إلى أن يقبل أحد الرجال.

– لكن بمقدورك يقيناً أن تجلس فوق سطح دارك، أليس كذلك؟ وإذا ما شاهدت أحداً في دار مجاورة فليس ذلك خطأك.

– إذن فعلّي أن أُشيح بناظريّ بعيداً، علي أن أبدي مدى عدم اكتراثي. ثمة امرأة صعدت لتوها إلى السطح وراءك، خادم عجوز، لم تدر بأني رأيتها، لكن هاهي ذي تهبط إلى الدار ثانية.

كانت قد اختفت قبل أن أتمكن من الالتفات

قلت محتجاً:

– لكن حرية المرء تغدو مكبلة فوق السطح، أكثر مما هي مقيدة في الطريق.

قال:

– يقيناً لا يرغب أحد في أن تسوء سمعته بين جيرانه.

رحت أرمق السنونوات، أحسدها على النحو الذي تحلق به وفق ما تشاء فوق ثلاثة، خمسة، عشرة أسطح في كل انطلاقة.

المرأة المطلة من النافذة

كنت أمر بسبيل، تحلقه رهط من الشباب يروون ظمأهم، يممت يساراً، فتناهى إليّ صوت ناعم، رقيق، مهدهد، ينبعث من فوق رأسي. رفعت ناظريّ نحو الدار التي كنت بإزائها، فرأيت بالطابق الأول، وراء نافذة تصالبت عليها القضبان، محيا امرأة في صدر الشباب، كانت متجردة من حجابها، عميقة السمرة، تشمخ برأسها أمام النافذة مباشرة. راحت تهدل بسيل رقراق من العبارات، تتألف جميعاً من نداءات التحبب والإعزاز. حرت في تفسير عدم تحجبها، كان رأسها يميل إلى الأمام هوناً، فأحسست بأنها تخاطبني، لم يرتفع صوتها أبداً، وإنما ظل متوشحاً الرقة، موغلاً في هدهدته، حتى شاروني شعور بأنها تضم رأسي بين ذراعيها، لكنني لم أستطع رؤية ذراعيها، فما كان يبدو منها إلا وجهها، لربما أخفت ذراعيها. كانت الغرفة التي تقف فيها معتمة، أما في الطريق حيث كنت أقف فقد تألقت الشمس في وحشية، بدا كما لو أن كلماتها تنبع من غدير، فتسيل إحداها إلى رحاب الأخرى، وما كان قد قدر لي أن أصغي إلى عبارات التحبب بتلك اللغة، لكنني أحسست أن ذلك هو فحواها.

داخلتني رغبة في المضي إلى باب الدار التي انبعث الصوت

منها، لكني خشيت أني إذا ما تحركت قد يداخل الفزع الصوت مثلما الطير، وماذا عساي أصنع إن تهاوى إلى وهدة الصمت؟ حاولت أن أكون رقيقاً، هادئاً، كالصوت نفسه، لم يسبق لي قط أن خطوت بمثل هذا الحذر، أفلحت في ألا أفزع الصوت. كان لايزال يترامى إليّ حينما وقفت أمام مدخل الدار، لكني ما عدت ألمح محيا صاحبته عند النافذة متصالبة القضبان. بدا البناء الضيق كبرج أصابه الدمار. ثمة فتحة في الحائط تهاوت الأحجار منها. كان الباب الأجرد تماماً يتألف من ألواح خشبية قليلة بائسة، مرتجاً كأنما لايلجه أحد كثيراً، وقد ثبت بأسلاك غليظة، لم تبد الدار مرحبة بالأغراب، فما كان بمقدورك أن تلجها، بدت العتمة ضاربة الأطناب في الداخل، ومن المحتمل أن تكون متهدمة إلى حد بعيد. عند المنعطف امتد زقاق ضيق، لكنه كان مهجوراً، يهيمن الصمت عليه، لم ألمح أحداً أستطيع الاستفسار منه، كان بمقدوري حتى في الزقاق سماع دفق الصوت المهدهد، تناهى عند المنعطف هينمة نائية، عدت إلى حيث كنت، وقفت على مبعدة من الدار، تطلعت عالياً، هناك وراء النافذة متصالبة القضبان لاح الوجه البدري، والشفتان اللاهجتان بأرق الكلمات.

خيل إليّ أن الكلمات قد اتشحت الآن بنغمة مختلفة هوناً، أفصحت عن ابتهال غامض، كأنما تقول: لاتدعني! ربما ظنت أنني مضيت إلى غير عودة، حينما اختفيت عن ناظريها لأتفحص الدار والباب. الآن قد عدت، وعليّ أن أبقى. كيف يسعني أن أصف تأثير هذا المحيا الأنثوي، المطل من علياء

نافذة، على المرء في هذه المدينة، وبهذه الحواري؟ ليس هناك إلا القليل من النوافذ المطلة على الطريق. ولايطل منها أحد مطلقاً، حتى ليراودك غالباً إحساس بأنك تسير طويلاً، وسط أسوار، رغم أنك تعلم أنها دور، فبمقدورك أن ترى الأبواب والنوافذ القليلة التي لا تستخدم. هكذا الأمر مع النسوة، فهن حقائب مطمورة بالثياب، لاقوام لها تمضي عبر الدروب، لاتستطيع تبين شيء منهن، لا تملك تخمين شيء، سرعان ما ينتابك الضجر من محاولة التوصل إلى فكرة ثابتة عنهن، فتعفيهن من اهتمامك، لكنك لا تقوم بهذا إلا متردداً، والمرأة التي تلوح عندئذ من النافذة، بل وتحادثك، تميل برأسها هوناً نحوك، لا تتراجع كأنما كانت دائماً هناك في انتظارك، تواصل محادثتك حينما تستدير منصرفاً وتنسل مبتعداً، تمضي في الحديث على هذا النحو، سواء بدوت لها أو احتجبت عن ناظريها، تحادثك أنت دوماً، تحادث الجميع أبداً... مثل هذه المرأة هي اجتراح لمعجزة، وَهْم يراود الرائي، فتميل إلى اعتبارها أكثر أهمية من أي شيء يمكن لهذه المدينة أن تهبك إياه.

كان حرياً بي أن أقف هناك وقتاً أطول كثيراً مما فعلت لولا أن الشارع كان مما تطرقه الأقدام كثيراً، مرت النسوة اللاتي يعبرن الشارع دونما اكتراث على الإطلاق بنظيرتهن القابعة خلف النافذة المتصالبة القضبان. عبرت الدار الشبيهة بالبرج، كما لو لم يكن هناك أحد ينبس بكلمة. لم يتوقفن، ولا تطلعن إلى النافذة، لكن اقتربن دونما تغيير في سرعة خطواتهن من الدار، ويمضين تحت نافذة المرأة المنطلقة في حديثها إلى

الشارع حيث كنت واقفاً، غير أني أدركت أنهن كن يرمقنني بنظرات تشي بالانتقاد، فما الذي أنا بسبيله هنا؟ ولمَ أقف هناك؟ ما الذي يستوقفني فأحدق فيه على هذا النحو؟

مرّ بي رهط من التلاميذ الصغار، يعبثون ويتضاحكون، كما لو كان الصوت المتناهي من النافذة لا يطرق آذانهم، رمقوني بنظرات متفحصة، بدوت بالنسبة لهم شخصاً غير مألوف بالمقارنة بالمرأة السافرة الوجه، اعتراني الخجل هوناً لوقوفي هناك وتحديقي بالنافذة، لكن شعوراً داخلني بأنني سأخذل صاحبة المحيا إذا ما انصرفت. تدافعت هذه الكلمات، مثلما دفق رهيف من تغريد العصافير، أما الآن فقد بدأت صيحات الأطفال الحادة التي تتمهل طويلا قبل أن تنداح للصمت، في الاختلاط بها. كانوا يحملون حقائبهم المدرسية، يغذون الخطى، عائدين إلى دورهم من المدرسة، محاولين إيهام أنفسهم بقصر رحلتهم بابتداع ألعاب صغيرة طريفة، تقضي قواعد إحداها بأن ينطلقوا عدواً إلى الأمام قليلاً ثم يعودون أدراجهم، كنتيجة لهذا كانوا يتقدمون في بطء القوقعة، ويجعلون الإصغاء للصوت المهدهد محنة بالنسبة لي.

توقفت امرأة مع طفل بالغ الضآلة إلى جواري، من المحتم أنها أقبلت من ورائي، فلم ألحظها. لم تمكث طويلاً، رشقتني بنظرة ملؤها الحنق، تبينت عبر حجابها ملامح امرأة علا بها العمر، اجتذبت الصغير بعيداً، كما لو كان وجودي يتهدده بالخطر، مضت لطيتها دون أن تنبس ببنت شفة. راودني الضيق، فغادرت موضعي، وحذوت حذوها متئداً. سارت في الطريق على

امتداد دور قليلة، ثم انعطفت ماضية في طريقها. حينما بلغت المنعطف الذي حجبها لمحت في نهاية الزقاق قبة ضريح. والضريح هو مزار يدفن فيه أحد الأولياء، يرتاده الناس تبركاً، ويتمتمون عنده بدعواتهم. توقفت العجوز أمام باب الضريح الموصد، رفعت الصغير عالياً، ألصقت فمه بشيء لم أتبينه من موضعي. كررت هذه الحركة عدة مرات، أنزلت الطفل إلى الأرض، أمسكت بيده، وشرعت في العودة من حيث أقبلت. على رأس الزقاق تعين عليها أن تمر بي ثانية، لكنها في هذه المرة لم تكترث حتى برشقي بنظرتها الناقمة، قبل أن تمضي في الاتجاه الذي أقبل كلانا منه.

مضيت إلى القبة، لمحت في منتصف الطريق إلى الباب الخشبي حلقة، لفت حولها خرق عتيقة، كانت هي ماقبله الطفل، حدث الأمر كله في صمت تام، لم ألحظ في غمار الحرج الذي انتابني أن التلاميذ أحدقوا بي، وراحوا يرمقونني بنظراتهم. فجأة تعالى ضحكهم، فيما اندفع ثلاثة أو أربعة منهم نحو الباب، أمسكوا بالحلقة، وقبلوا الخرق العتيقة، دوت ضحكاتهم، وهم يكررون هذا الطقس من كافة الجوانب، تعلق أحدهم بالجانب الأيمن من الحلقة، وآخر بالجانب الأيسر. بدت قبلاتهم وكأنها سلسلة من الأصوات يحدثونها بشفاههم. سرعان ما نحاهم جانباً آخرون أقبلوا من ورائهم. كانوا يريدون جميعاً إرشادي إلى النحو الذي ينبغي أن يؤدي به هذا الطقس، لربما توقعوا أن أحاكيهم. كانوا جميعاً أطفالاً يتألقون نظافة، ويلقون عناية كبيرة، كنت على يقين من أنهم يغتسلون عدة مرات كل

لكن الخرق كانت قذرة، كمالو كان الزقاق قد كنس وكان من المفترض أنها مزق من ثوب الولي، تشع بالنسبة لمن يعتقدون بكراماته بشيء من بهاء هذه الكرامات.

حينما ضجر الصبية من تقبيلها تحلقونني، وهم يبتسمون، لفت أحدهم انتباهي بمحياه المشع بالذكاء، بدا عليه أنه يود القراءة، رد في أدب جم: «نعم، ياسيدي» انتزعت كتاباً كنت أتأبطه، فتحته، أمسكت به أمام ناظريه، ببطء ولكن دونما تعثر طالع الجمل الفرنسية بصوت عال. كان عملاً يتناول العادات الدينية لأبناء المغرب، والفقرة التي فتحته عليها تتناول توقير الأولياء وزيارة أضرحتهم. بمقدورك أن تقول إن ذلك جاء بمحض الصدفة، لكن هوذا يتلو عليّ ما كان هو وأصدقاؤه يوضحونه لي. لم يبدر منه ما يوحي بأنه يدرك ذلك، لربما في غمار انفعاله بالمطالعة لم يستوعب معنى الكلمات. أشدت به، فتقبل الإطراء بكبرياء رجل وقور، أحببته حباً جماً حتى أني ربطته غير عامد بالمرأة المطلة من النافذة.

أشرت باتجاه الدار المتصدعة، وسألته:

– هذه المرأة المطلة من النافذة هناك... أتعرفها؟

– أجل، ياسيدي!

قالها وقد كسا الجد ملامحه. واصلت استفساري:

– أهي مريضة؟

– مريضة جداً ياسيدي!

رنت كلمة «جداً» التي أكدت سؤالي كالشكوى، لكنها شكوى من شيء يذعن له كلية. ربما لم يكن قد تجاوز التاسعة من عمره، لكنه لاح وقتها كما لو كان قد عمّر عشرين حولاً مع مريض لابرء من مرضه، ملماً خير الإلمام بما يتعين على المرء أن يأتيه في مثل هذه الحالة.

– أيكمن مرضها في رأسها؟

– أجل ياسيدي، في رأسها.

أومأ مشيراً وهو يقول «في رأسها» لكنه بدلاً من أن يشير إلى رأسه أشار إلى رأس صبي آخر بدا متميز الحسن: كان وجهه مستطيلاً وعيناه نجلاوين عميقتين حزنا. لم تند ضحكة عن صبي واحد، وقفوا هناك صامتين، تبدل مرحهم في اللحظة عينها التي شرعت فيها بالحديث عن المرأة المطلة من النافذة متصالبة القضبان.

زيارة إلى باب الملاح

صباح اليوم الثالث يممت، بمجرد انفرادي بنفسي، نحو حي باب الملاح، وصلت إلى مفترق للطرق يقف عنده عدد كبير من اليهود، كان المارة يتدفقون متجاوزين هؤلاء اليهود، ثم ينعطفون في الطريق عقب ذلك، رأيت الناس يمضون عبر عقد عربي مقنطر، يبدو كما لو كان مقحماً في سور، فحذوت حذوهم. داخل السور امتد حي باب الملاح أو الحي اليهودي، وقد حاصرته حجارة السور من الجهات الأربع جميعها.

ألفيت نفسي في سوق شرقي صغير مفتوح، أقعى الرجال وسط بضائعهم في حوانيت صغيرة منخفضة السقف، فيما وقف آخرون يرتدون الزي الأوروبي، كانت أغلبيتهم تعتمر غطاء الرأس اليهودي، الذي يميز اليهود أنفسهم به هنا، وأطلق عدد كبير منهم لحاهم. كانت الحوانيت الأولى التي بلغتها تبيع الأقمشة، راح أحد الرجال يقيس ثوباً من الحرير، عكف آخر غارقاً في التفكير على قلمه دؤوب الحركة يجري حساباته. حتى الحوانيت الأكثر ثراء بدت صغيرة، والزبائن يرتادون العديد منها، في إحداها حجب رجلان لحيمان، دونما اكتراث ثالثاً عن الأنظار، هو صاحب الحانوت النحيل، وقد انهمكا معه في نقاش متفجر

بالحيوية وإن تمسكا خلاله بكبريائهما.

تجولت بأقصى ما يسعني من بطء متصفحاً الوجوه، بدا تباينها مذهلاً، لمحت وجوهاً كان حرياً بي لو أن أصحابها يرتدون ثياباً أخرى أن أحسبها وجوهاً لأناس من غير اليهود، ثمة آخرون بدوا وكأنما يحاكون اليهود مستنيري الوجوه الذين صورهم رمبرانت، وحاخامات يلفهم هدوء وتواضع مراوغان، لمحت «يهوداً تائهين» يرتسم الضياع على قسماتهم كافة، كان هناك فرنسيون وأسبان وروس صهب، ثمة رجل تشعر بأنك تود أن تحييه، كما لو كان إبراهيم أبي الأنبياء، راح يخاطب في كبرياء رجلاً يشبه نابليون، فيما كان رجل عصبي المزاج يبدو كما لو أحاط بالكون علما يشبه جوبلز يحاول التدخل بينهما، فحلق ذهني إلى تناسخ الأرواح، حدثت نفسي بأنه ربما تعين على كل روح بشرية أن تكون يهودية لمرة واحدة، وأن الأرواح ماثلة جميعاً هنا، لا تتذكر إحداها ما كانته قبلاً، وحتى حين تفصح الملامح عن هذا بجلاء حتى ليدركه غريب مثلي، فإن كل من هؤلاء الناس الساعين هنا لايزال يعتقد جازماً بأنه ينحدر مباشرة من صلب الأسباط التي تحدث عنها الكتاب المقدس.

لكنهم جميعاً كانوا يشتركون في شيء واحد، حاولت أن أدرك ماهيته، بمجرد أن أصبح التنوع الكبير لوجوههم والتعبيرات المرتسمة على ملامحهم مألوفاً لي. كانت لهم طريقة في رفع وجوهم والنظر إلى من يمر بهم، وتكوين رأي عنه. لم يحدث مرة واحدة أن مررت بحانوت دون أن تلحظني الأعين، حينما كنت أتوقف كانوا يتنسمون فيّ مشترياً، ويتفحصونني على هذا

الأساس. لكنني غالباً ما كنت ألمح النظرة السريعة اللماحة قبل وقت طويل من وقوفي، بل وفي بعض الأحيان كنت ألمحها على الجانب الآخر من الطريق، وحتى في حالة القلائل الذين جلسوا في حوانيتهم، بالفتور العربي لم تكن النظرات فاترة قط. كانت تقبل كرائد يرود درباً مجهولاً بحنكة واقتدار، وسرعان ما ترحل بعيداً. كانت من بينها نظرات عدائية، باردة، لامبالية، محتجة، وأخرى بالغة الحكمة بلا انتهاء، لكن أياً من هذه النظرات لم يبد لي متشحاً بالبلاهة، كانت نظرات أناس على حذر دوماً، لكنهم وإن توقعوا العدوان ماكانوا يسعون لاستثارته، فما بدت في عيونهم لمعة تحدٍ واحدة، وإنما كمن خوف يتحرى أن يظل محتجباً.

يوشك المرء أن يميل إلى القول بأن كبرياء هولاء الناس يكمن في حذرهم، الحانوت مفتوح من جانب واحد فحسب، وما من حاجة تدعو إلى القلق بإزاء ما يجري وراء ظهورهم، أما في الشارع فإن هؤلاء الناس أنفسهم يحسون بأنهم أقل أماناً. سرعان مالاحظت أن «اليهود التائهين» من بينهم، أي أولئك الذين يثيرون لدى المرء شعوراً بالقلق والتشكك هم دائماً من المارة، أناس يحملون بضائعهم كلها معهم، يضطرون إلى شق طريقهم وسط الزحام، لايدرون أبداً ما إذا كان أحد يوشك أن ينقض على بضاعتهم البائسة من الخلف، من اليسار، من اليمين ومن الاتجاهات كافة في آن، أما الرجل الذي يحظى بحانوت يمتلكه، يقضي في رحابه سحابة نهاره، فيوشك أن يتمتع بالاطمئنان.

غير أن البعض كانوا يقتعدون أرض الشارع، يعرضون القليل

من البضائع وعروض التجارة للبيع، وغالباً ما يتألف ما يعرضون من أكوام صغيرة بائسة من الخضر أو الفاكهة. بدا كما لو أن هؤلاء البائعين ليس لديهم على الإطلاق ما يبيعون، لكنهم يتشبثون فحسب بما يوحي بأنهم يمارسون التجارة، كان مظهرهم يوحي بالإهمال، لم يكن عددهم باليسير، والفيت اعتيادهم أمراً شاقاً. لكنني سرعان ماغدوت متأهباً لمواجهة أي شيء فلم تدهشني على نحو خاص رؤية عجوز متهالك، مقعياً على الأرض، وقد عرض للبيع ليمونة واحدة متغضنة ذابلة.

كانت خطاي تمضي بي في شارع يفضي من السوق الشرقي عند المدخل إلى أغوار حي باب الملاح، غص الطريق بالناس. بين الرجال الذين لاحصر لهم لمحت امرأة أو اثنتين تمضيان سافرتين. أقبلت حيزبون طاعنة في العمر، متثاقلة الخطى، بدت أكثر مخلوقات الأرض تقدماً في العمر. كانت عيناها تحدقان بثبات في البعيد، كما لو كانت ترى مقصدها على وجه الدقة، لم تتنح لأحد عن الطريق، فيما انحرف الآخرون عن مسارها في عبورهم له، وإني لأعتقد أن الناس كانوا يرهبونها، فقد كانت تمضي ببطء بالغ، فيتاح لها الوقت لتصب لعناتها على الأحياء كافة، لربما كان الخوف الذي تثيره في الأفئدة هو الذي منحها القوة للقيام بجولتها هذه. حينما مرت إلى جواري أخيراً التفت لألقي نظرة عليها، استشعرت نظرتي ؛ لأنها سرعان ما التفتت في بطء، يحاكي البطء الذي تسير به، وحدجتني بنظرتها في كامل اقتدارها. عجلت بالمضي في طريقي، كانت استجابتي لنظرتها غريزية تماماً، حتى إنني لم ألحظ إلا بعد مضي بعض الوقت مدى السرعة التي كنت منطلقاً

بها.

مررت بصف من حوانيت الحلاقين، ثمة فتية في مطالع العمر، هم الحلاقون، يسترخون على المقاعد. على الأرض بإزائهم أقعى رجل عارضاً للبيع سلة من الجراد المحمر، حلق بي ذهني إلى الكارثة الشهيرة التي حلت بمصر، أدهشني أن اليهود بدورهم يأكلون الجراد. في حانوت أكثر ارتفاعاً من الحوانيت الأخرى رجل له ملامح وبشرة الزنوج، كان يعتمر غطاء الرأس اليهودي، ويبيع الفحم. تكوم الفحم تلالاً حوله، بدا كما لو أن قدره أن يودع وراء جدران من فحم، وما كان ينتظر إلا مقدم الرجال الذين سيتمون هذه المهمة. قبع ساكناً تماماً، حتى إني عجزت في بادئ الأمر عن تبينه، كانت عيناه هما اللتان شدتاني إليه، باتقادهما في وسط كل هذا الفحم. إلى جواره عكف رجل أعور على بيع الخضر، كانت عينه التي كف بصرها فظيعة التورم، لكأنما كانت تهدد بالانفجار، راح يعبث شارداً بخضره، يدفعها في حذر من جانب إلى آخر، ثم يعيدها حذرا كرة أخرى. اقتعد رجل آخر الأرض إلى جوار خمسة أو ستة أحجار استقرت على التراب، راح يلتقط أحدها، يزنه في يده، يتفقده، يرفعه عالياً للحظة في الهواء، يعيده إلى جانب الأحجار الأخرى، مكرراً الطقس عينه معها، لم يرفع ناظريه إليّ لحظة واحدة رغماً عن وقوفي أمامه مباشرة. كان الشخص الوحيد في الحي بأكمله الذي أنف النظر إليّ، فقد استحوذت الأحجار التي يحاول بيعها على كل اهتمامه، بدا أكثر اهتماما بها منه بالمشترين.

لاحظت أنني كلما أوغلت المسير في باب الملاح غدا

كل شيء أكثر تواضعاً، لقد تركت ورائي الأقمشة الصوفية والحرائر البديعة، لم يعد الثراء والوقار يجعلان أحداً يبدو كأبي الأنبياء، كان السوق الشرقي الواقع إلى جوار بوابة الدخول بمثابة مدخل أنيق للحي، أما حياته الفعلية، حياة البسطاء فقد كانت ماثلة هنا. بلغت ميداناً، بدا لي بمثابة قلب باب الملاح. تحلق جمع من النسوة والرجال معاً نافورة مستطيلة الشكل، عكفت النسوة على ملء الجرار التي يحملنها، أما الرجال فراحوا يملأون قربهم، كانت حميرهم تقف إلى جوارهم تنتظر دورها كي ترتوي. في وسط الميدان أقعى عدد من الطهاة، يطهون في الهواء الطلق، كان بعضهم يحمر اللحم، والبعض الآخر يقلي حلوى محلاة بالسكر والدهن، التفت حولهم أسرهم، زوجاتهم وأطفالهم، كأنما نقلوا دورهم إلى الميدان، وانغمسوا في حياتهم وطهي وجبات طعامهم هاهنا في قلب الميدان.

وقف فلاخون في أردية البربر، يحملون دجاجات حية في أيديهم إلى جوار الطهاة، كانوا يمسكون بها من أرجلها التي قيدت معاً، فيما تدلت رؤوسها إلى أسفل، حينما تدنو النساء منهم للشراء كانوا يبسطون أيديهم بالدجاجات نحوهن ليتفقدنها، تمسك المرأة بالدجاجة في يدها، دون أن يطلقها الفلاح، ودون تغيير وضعها، تجسها، تضغط عليها، تنطلق أصابعها مباشرة إلى المواضع اللحيمة فيها، لاينبس أحد بكلمة خلال هذا الفحص، لا الفلاح ولا المرأة، وبدورها تلتزم الدجاجة السكون، ثم تتركها في يده متدلية كعهدها، وتنتقل إلى الفلاح المجاور، وما من امرأة تبتاع دجاجة دون أن تفحص أولاً عدداً كبيراً من الدجاجات الأخرى.

حاصرت الحوانيت الميدان كله، عكف الصناع في بعضها على عملهم، ورنين مطارقهم، وشواكيشهم يتردد عالياً وسط عجيج الأصوات. ففي أحد الأركان تجمع رهط من الرجال غارقين في مناقشة حامية، لم أدرك معنى ما يقولونه، لكنهم كانوا يناقشون قضايا العالم، وهو ما يمكن للمرء أن يستنتجه من سماتهم، تضاربت آراؤهم، تداخلت حججهم، بدا لي أنهم يفندون حجج بعضهم البعض باستمتاع شديد.

وقف في وسط الميدان شحاذ عجوز، هو أول شحاذ أصادفه في الحي، لم يكن يهودياً، انطلق تواً ليبتاع بالعملة التي نفحته إياها قطعة من الحلوى المقلوة التي كان نشيشها يتصاعد من المقلاة. التف عدد كبير من الزبائن حول الطاهي، فكان على الشحاذ العجوز أن ينتظر دوره، لكنه لبث صابراً، رغم أن رغبته الملحة شارفت على التحقق، حينما ابتاع الحلوى أخيراً مضى بها إلى وسط الميدان، هناك التهمها بفم لايكل عن التمطق، بدا تلذذه بها ينتشر مثلما سحابة من الغبطة تلف الميدان. لم يعره أحد التفاتاً، لكن الجميع كانوا يتشبعون بغبطته، بدا لي بالغ الأهمية بالنسبة لحياة الميدان... جسّد لحظة تناول الطعام بالنسبة للميدان.

لكني ماظننت بأن عليّ التوجه بالشكر له وحده لما استشعرته من سعادة ساحرة في ذلك الميدان، راودني شعور بأنني كنت في مكان آخر، وأني بلغت هدف رحلتي، أحسست بأني أرغب في الرحيل، فقد كنت في هذا الموضع قبل قرون، لكني نسيت ذلك، الآن هو ذا كل شيء يتداعى عائداً إليّ. في هذا

الميدان انصب زحم الحياة ووهجها على نحو ما أحسهما في أعماق ذاتي، لكأني كنت ذلك الميدان فيما انتصبت واقفاً في وسطه، وإني لأومن بأني مستوحد معه دوماً.

وجدت الرحيل شاقاً حتى أني كنت أعاود الرجوع كل خمس أو عشر دقائق، كائناً ماكان هذا الذي أمضي إليه أو أكتشفه في باب الملاح، كنت أنحيه جانباً لأعود إلى الميدان الصغير، أعبر في اتجاه أو آخر لأتيقن من أنني لازلت على أرضه.

مضيت بداية إلى أحد الشوارع الأقل جلبة، حيث تقفز من الحوانيت ولا تمتد على جانبيها إلا الدور، ألفيت في كل مكان على الجدارن إلى جوار الأبواب على مسافة ومن الأرض أكفاً ضخمة مرسومة بالطلاء، وقد حدد كل أصبع بوضوح لدرء أعين الحساد، كانت تلك هي العلامة التي وجدتها أكثر ذيوعاً، وقد آثر الناس رسمها حيث يقيمون، خلال الأبواب المفتوحة أتيح لي إلقاء نظرات عابرة على الأفنية. كانت أكثر نظافة من الطرقات. هيمن السلام المنبعث منها عليّ. وددت لو ولجتها، لكن الجرأة لم تواتني على إتيان ذلك، حيث لم يبد لي أحد في أي منها، وما كنت لأدري ما أقوله لو أني صادفت امرأة فجأة فيها، بل وشعرت بالانزعاج إزاء فكرة أنني قد أسبب إزعاجاً للآخرين، تناهى إليّ صمت الدور موحياً بالنذير، لكنه لم يدم طويلاً، فقد تعالى ضجيج هش الرنين، وإن لم ينقصه الارتفاع، حاكى أول الأمر جوقة من الجداجد، تزايد ارتفاعه حتى خيل إليّ أنه صادر عن قفص مليء بالطير. حدثت نفسي، ماذا عساه أن يكون؟ ليست هناك أقفاص للطيور تحتشد بالمئات منها! أطفال! مدرسة!

سرعان ما تبدد الشك، فقد كان هذا الصخب الصاك منبعثاً من مدرسة.

تمكنت عبر بوابة مفتوحة من الإطلال على فناء فسيح، ربما كان هنالك مائتا طفل صغير، يقتعدون قمطرات، منحشرين فيها، وانطلق آخرون في العدو، فيما اقتعد فريق ثالث الأرض مواصلاً اللهو، كان معظم الأطفال الذين اقتعدوا القمطرات يحملون في أيديهم كتب التعليم الأولى، كانوا يتمايلون إلى الأمام والخلف في عنف، وقد ضمت كل مجموعة ثلاثة أو أربعة منهم وهم عاكفون بأصوات صاخبة على ترديد حروف الأبجدية العبرية أليف، بيت، جيمل «راحت الرؤوس الصغيرة السمحاء تتقافز جيئة وذهاباً، كان أحد الأطفال يفوق رفاقه دوماً في حماسهم، وتتميز حركاته بتوتر أعظم، ترددت الأبجدية العبرية منسابة من فيه كأنها الوصايا العشر تردد لأول مرة.

دلفت إلى الفناء محاولاً تلمس نشاط الصبية في أوج احتدامه، كان أصغرهم يلهون على الأرض. وسطهم انتصب معلم، خلق الملبس، يمسك بيده اليمنى حزاماً من الجلد، يستخدمه في التأديب، في خنوع دنا مني، بدا وجهه المستطيل مسطحاً، خالياً من التعبير، يتناقض تصلبه المجرد من الحياة مع الأطفال الذين يتدفقون حياة. يخيل للمرء أنه ليس بمقدور هذا المعلم أن يسيطر عليهم إطلاقاً، وأنه يتلقى راتباً زهيداً، كان في صدر الشباب، لكن حيويتهم جعلته يبدو كهلاً، لم يكن يتحدث الفرنسية، ولم أتوقع شيئاً منه. كفاني أن بمقدوري الوقوف هناك وسط الجلبة الصاكة وأن أتطلع حولي قليلاً، لكنني كنت قد

أسأت تقديره، فتحت قناعه المتصلب تماوج مايحاكي الطموح، فقد أراد أن يظهرني على ما يستطيع تلاميذه اجتراحه.

استدعي طفلاً صغيراً، أمسك أمامه بصفحة من كتاب التعليم الأولي، على نحو يمكنني بدوري من رؤيتها، مضى يسير إلى المقاطع العبرية في تتابع سريع متنقلاً من وسط إلى آخر علواً وسفلاً عبر الصفحة بصورة عشوائية، كان يريد أن يطلعني على أن الصغير لم يتعلم الأبجدية فقط عن طريق الحفظ والتكرار الأعمى دون قراءة، التمع وميض في عين الطفل، وهو يقرأ بصوت عال، «لا – لو– ما– نو– شي– تي– با– بو» لم يرتكب خطأ واحداً، ولم يتعثر مرة، كان موضع فخار معلمه، وقد تزايد سرعته مع استمراره في القراءة، حينما فرغ من ذلك، ونحى المعلم الكتاب، ربت على رأسه، وأطريته بالفرنسية، لكنه أدرك ما كنت أقول، عاد إلى قمطره، وتظاهر بأنه لم يعد يراني، فيما حل الطفل التالي محله، كان هذا أكثر خجلاً، ارتكب بعض الأخطاء، صرفه المعلم بتربيتة رقيقة، استدعى طفلاً أو طفلين آخرين، خلال هذا كله تواصلت الجلبة دونما هوادة، همت الحروف العبرية كقطرات المطر في بحر المدرسة متلاطم الأمواج.

تحلقني صبية آخرون ورمقوني بفضول، بعضهم لاتنقصه الجرأة حد الصفاقة، بعضهم يغلبه الحياء، آخرون عابثون، نحى المعلم، في حكمته التي لايسبر لها غور، ودونما رأفة، أولئك الذين يغلبهم الحياء. كان على إدقاعه وبؤسه سيد هذا الجانب من المدرسة، وحينما انتهى الأداء تبددت من محياه أمارات الفخر الممتزج بالغبطة. وجهت له الشكر بأدب جم تقديراً له في إيجاز

؛كأنما كنت زائراً رفيع الشأن، من المحتم أن شعوره بالرضا كان جلياً، وبالارتباك الذي أثارته اللمسة التي نالتني من باب الملاح عقدت العزم على العودة في الغد، عندئذ فقط أمنحه بعض النقود، مكثت لبرهة متأملاً الصبية في حفظهم، اجتذبتني اهتزازات رؤوسهم جيئة وذهاباً، كانوا أقرب الناس إلى قلبي، ثم غادرت المكان حاملاً الضجيج في أذني، صحبني طوال مسيرتي حتى نهاية الشارع.

بدأ الزحام يأخذ بخناق الطريق كأنما هو يفضي إلى موضع عام له أهميته، لاح لعيني سور على مبعدة وبوابة ضخمة، لم أدر إلى أين يفضي، لكنني كلما دنوت منها تعاظم حشد الشحاذين على جانبي الطريق، دهشت لمرآهم، فلم يسبق لي أن شاهدت شحاذاً يهودياً، حينما بلغت البوابة شاهدت عشرة أو خمسة عشر منهم، نساء ورجالاً، ضرب معظمهم طويلاً في شعاب العمر، يقتعدون الأرض في صف واحد. وقفت في منتصف الطريق في حرج بالغ متظاهراً بفحص البوابة، فيما كنت في الواقع عاكفاً على تفحص وجوه الشحاذين.

أقبل شاب في مقتبل العمر نحوي، أشار إلى السور، قال: «المقبرة» وعرضَ على مرافقتي إلى الداخل. كانت تلك هي كل حصيلته من الكلمات الفرنسية. تبعته مسرعاً عبر البوابة، كان يتحرك سريعاً، وليست ثمة ما يقال. ألفيت نفسي في باحة فسيحة، جرداء، لا تنمو فيها نبتة عشب واحدة، كانت أحجار المقابر من الانخفاض بحيث إني بالكاد لمحتها، ولربما يقدر لك أن تجوس خلالها وكأنها أحجار عادية، بدت المقبرة وكأنها ركام وافر من الحجارة المتكسرة، لربما كانت محجراً في

وقت من الأوقات ثم خصصت فيما بعد لغرضها الأشد جهامة. لم يكن ثمة ماهو مرتفع فيها، كانت الأحجار التي تستطيع رؤيتها والعظام التي بمقدورك تصورها «راقدة» جميعها، لم يكن مما يدعو للبهجة أن يمضي المرء منتصب القامة، فما كان ذلك يمنحك شعوراً بالفخار، وإنما يدفعك للإحساس بأنك مثير للسخرية.

في مواضع أخرى من الدنيا تصمم المقابر على نحو يمنح الأحياء البهجة، تحفل بأشياء تضج بالحياة، النباتات، الطيور، فيستمد منها الزائر الذي تدب الحياة في عروقه وحده وسط كل هؤلاء الموتي قوة وثباتاً، يبدو له وضعه شيئاً يحسد عليه، يطالع أسماء الناس على أحجار القبور، أولئك الذين عاش بعدهم جميعاً، يداخله شعور بأنه هزم كل منهم في مبارزة ثنائية، وإن لم يقر بهذا الشعور، يخالجه الحزن كذلك بالطبع، لرحيل كل هؤلاء دونما عودة، لكن ذلك يجعله في الوقت نفسه يحس بأنه لايقهر. ترى في أي موضع آخر يراوده مثل هذا الشعور؟ في أي ساحة قتال في الدنيا سيجد نفسه الوحيد الذي نجا بحياته؟ يقف شامخاً بقامته، وسط الراقدين تحت التراب، لكن الأشجار والشواهد تشاركه في ذلك لقد غرست وشيدت هناك، وهي تحيطه كأنها نوع من الميراث ما وجد إلا ليبعث السرور في نفسه.

لكن في هذه المقبرة المهجورة تلك لم يكن هناك إلا الهباء، إنها الحقيقة ذاتها، باحة موت ضائعة، حينما تنظر إليها لاتحس بأدنى اكتراث بهوية الراقدين تحت التراب وموضع

ضجعتهم الأخيرة، لا تتوقف، لا تتأمل الأمر! هاهم جميعاً يرقدون كومة من حجار، فتود لو تهرع فوقهم، منطلقاً كالضبع، إنها برية للموتى ما عاد شيء ينمو فيها، البرية الأخيرة، آخر البريات جميعها.

ما إن مضيت قليلاً حتى سمعت صيحات ورائي، التفت، جمدت خطاي داخل السور أيضا، على جانبي البوابة كليهما وقف جمع من الشحاذين، ثمة كهول ملتحين، بعضهم يتأبط عكازات، آخرون كف بصرهم، باغتني المشهد، فلم أكن قد لاحظتهم قبلاً، لما كان دليلي مسرعاً فقد فصلتني مئات عديدة من الخطوات عنهم، ترددت في عبور هذا الامتداد من الأرض اليباب كرة أخرى قبل الإيغال في المسير. لكنهم لم يترددوا، انفصل ثلاثة منهم عن عكازاتهم، تقدمهم رجل عريض المنكبين، وثيق البناء، كث اللحية، كان قد فقد إحدى ساقيه، فراح يدفع نفسه بقفزات قوية من عكازيه. سرعان ما سبق الآخرين كثيراً، لم تكن أحجار القبور الخفيضة عقبة في طريقه، فقد كان عكازاه يعثران دائما على الموضع الصحيح لارتكازهما، فما انزلق مرة. أقبل نحوي كحيوان ينذر بالخطر، مندفعاً، لا يلوى على شيء لم يبد في ملامح وجهه مع اقترابه ما يثر تعاطفاً، شأن قوامه كله كانت هذه الملامح تعبر عن مطلب عنيف واحد: «إنني على قيد الحياة! أعطني!»

داخلني شعور مبهم بأنه يرغب في القضاء عليّ بكيانه الداهم، كان إحساسا رهيبا، انتزعني دليلي، وهو رجل ناحل خفيف تشبه حركاته العظاة، من موضعي سريعاً، قبل أن يصلني

الآخر، فلم يكن يرغب في أن أهب هؤلاد الشحاذين شيئاً، صاح في عربية لم أتفهمها، حاول الرجل الضخم ذو العكازين اللحاق بنا، لكنه حينما أدرك أن سرعتنا أكبر استسلم وتجمد في موضعه، ظلت لعناته الغضبى تلاحقنا لبعض الوقت، وانضمت إليه أصوات الآخرين في جوقة لاتنذر بخير.

أحسست بالارتياح لإفلاتي منهم، لكنني خجلت من تخييب آمالهم، في الوقت ذاته، لم تكن الأحجار هي التي أحبطت هجمة العجوز الأعرج، فقد كانت مألوفة لعكازيه، وإنما سرعة دليلي، والله يعلم أن الفوز في مثل هذا السباق غير المتكافئ لم يكن مما يفخر به المرء. أردت أن أكتشف المزيد عن خصمنا التعس، فرحت أسائل دليلي، لكنه لم يفقه كلمه مما أقول، وبدلاً من الإجابة ارتسمت ابتسامة دعية على شفتيه، راح يكرر بالفرنسية «نعم» مرات عديدة، لم أدر إلى أين يمضي بي، غير أنه بعد تلك الواقعة مع الكهل لم تعد هذه البرية مهجورة تماماً، لقد كان واضع اليد الشرعي عليها، وحارس الأحجار الجرداء، الركام والعظام المحتجبة عن الأنظار.

لكنني كنت قد بالغت في تقدير أهميته، فسرعان ما لقيت جمعاً غفيراً يتخذ هذا المكان مقراً له، وراء تلة صغيرة عرجنا نحو منبسط من الأرض، فألفينا أنفسنا فجأة أمام بيعة صغيرة، تحلقها في نصف دائرة صغيرة حوالي خمسين سائلاً، حشد من النسوة والرجال ابتلي بكل العاهات التي عرفها البشر، يحاكون قبيلة بكاملة على وجه التقريب، اللهم إلا أن الغلبة كانت للكهول، اقتعدوا الأرض جماعات تضاربت ألوان ملابسها، الآن

هاهم يتحركون في اتئاد، شرعوا يغمغون بالأدعية، ويمدون أيديهم سائلين، لكنهم لم يطبقوا عليّ قبل ارتيادي البيعة.

أطللت على حجرة مستطيلة بالغة الصغر، أوقدت فيها مئات الشموع ثبتت على اسطوانتين زجاجيتين صغيرتين وقد أغرقهما زيت عطري، وضع الجانب الأعظم منها مصطفاً على موائد في الارتفاع المألوف، فتطل عليها كما لو كانت كتاباً تطالع صفحاته، تدلى عدد محدود من السقف في أوعية ضخمة، عند كل من جانبي الحجرة وقف رجل، بدا جلياً أن قد أنيط به ترتيل الصلوات، ثمة قطع نقدية على المائدة بالقرب من كل منهما. ترددت عند عتبة الحجرة، إذ لم يكن لديّ غطاء لرأسي، انتزع الدليل غطاء رأسه، قدمه لي، اعتمرته في غير قليل من الارتباك، إذ كان بالغ القذراة. أومأ لي الرجلان بالدخول، فدلفنا وسط الشموع، لم يحسباني يهودياً، وما رتلت صلاة. أشار الدليل إلى القطع النقدية، فأدركت ما يتوقع مني الآن، لم أمكث ما يتجاوز برهة من الزمان، فقد بعثت الرهبة في نفسي هذه الغرفة الصغيرة في البرية التي احتشدت بالشموع، وما كانت إلا شموعاً، شعت جلالاً هادئاً، كأنما لم ينته شيء طالما ظلت على توهجها، لربما كانت توهجات اللهب الوانية تلك هي كل ما بقي من الموتى، لكنك في الخارج سرعان ما تفيق عن كثب وبحدة على حياة السائلين المنتفضة بالانفعال.

ها أنذا بينهم كرة أخرى، فدبت الحركة فيهم موفورة، ضربوا نطاقاً حولي، كأنما قد لا أنتبه على وجه الدقة إلى عجزهم، فحرصوا على أن يطرحوا عاهاتهم أمامي في رقصة

تفصيلية، وفي الوقت نفسه على نحو بالغ القوة، تمسحوا بركبتي، قبلوا أطراف سترتي، بدوا كأنهم يهبون البركة لكل جزء من بدني، لاح الأمر كما لو أن جمعاً من الناس اندفعوا بأفواهم، أعينهم، أنوفهم، أذرعهم، وسيقانهم بخرقهم وهلاهيلهم، بكل ما يملكون، بكل ما يتألفون منه في انقضاضة دعاء لك، داهمني الخوف، لكني لا أنكر أني تأثرت بعمق كذلك، وأن خوفي سرعان ماذاب في غمار تأثري. لم يسبق أن اقترب أناس مني قط على هذا النحو، نسيت قذارتهم، فما عدت أكترث بها، تجاهلت القمل، استشعرت ذلك الافتتان بأن يتمزق المرء حياً من أجل الآخرين، بدا ذلك الوقر المخيف للعبادة وكأنه يبرر التضحية، ترى كيف لم يؤد ذلك إلى اجتراح المعجزات؟

لكن دليلي حرص على ألا يبقيني طويلاً بين يدي المتكففين، فقد كان استحقاقه للهبات أقدم عهداً، ولم يتلق حتى الآن مايفي بهذه الاستحقاقات، وكما كان لديّ من القطع النقدية الصغيرة ما يكفي الجميع، دفع أولئك الذين واصلوا الإلحاف بصيحات وصرخات متداركة، أمسك بيدي فانتزعني من بينهم. حينما تركنا البيعة وراءنا قال بالفرنسية «نعم» وكررها مرات ثلاثاً بابتسامته المعهودة، وما كنت بادرته بسؤال. في طريق العودة لم تبد لي أحجار القبور الركام ذاته، فقد أصبحت أدري أين يتجمع سناها، وحياتها. رشقني الكهل القابع داخل البوابة والذي ألقى بنفسه في قوة بالغة في غمار سباق معي بعكازيه بنظرة طافحة غيظاً، غير أنه لزم الصمت واحتفظ بلعنته لنفسه. اجتزت البوابة خارجاً، اختفى دليلي بالسرعة ذاتها التي ظهر بها وفي الموضع نفسه، لربما كان يحيا في شق بسور المقبرة لايغادره إلا

نادراً، لم يمض إلا بعد أن تقبل ما نصحته به، وعلى سبيل الوداع قال لي بالفرنسية: «نعم».

عائلة الدهان

لدى عودتي، في اليوم التالي، إلى باب الملاح، انطلقت مسرعاً قدر طاقتي إلى الميدان الصغير الذي دعوته بـ «قلب» الحي، ثم إلى المدرسة حيث كنت مديناً للمعلم الذي تجرد وجهه من أي تعبير. تلقاني على النحو ذاته، كما لو كانت تلك هي زيارتي الأولى، ولربما كان سيعيد استعراض المطالعة كرة أخرى، غير أني سبقته ونفحته بما شعرت أني مدين له به. أخذ النقود سريعاً، دونما تردد، بابتسامة جعلت محياه يبدو أكثر تصلباً وبلاهة. تجولت وسط الأطفال بغض الوقت متابعاً مطالعتهم الإيقاعية التي أثرت فيّ كثيرا بالأمس. غادرت المدرسة، شرعت أضرب على غير هدى عبر شوارع الحي، كانت رغبتي في أن ألج إحدى الدور قد تزايدت، فقررت ألا أغادر الحي هذه المرة دون أن أشاهد داراً من الداخل. ولكن كيف ألجها؟ كنت بحاجة إلى ذريعة، ووفقاً لما شاء الحظ سرعان مالاحت ذريعة أتعلل بها من تلقاء ذاتها.

كنت قد توقفت أمام إحدى الدور الأكثر اتساعاً، كان الجلال يميز بوابتها عن غيرها. كانت مفتوحة، وبمقدوري أن أطل على فناء جلست امرأة في جانبه الآخر. بدت في شرخ

شبابها، سمراء، تشع فتنة، وربما كانت هي التي جذبت انتباهي أولاً.. ثمة أطفال يلهون في الفناء، لما كانت لدي خبرة بالمدارس فقد فكرت في التظاهر بأني حسبت الدار مدرسة وإنني مهتم بالأطفال.

وقفت هناك محدقاً إلى الداخل، عبر رؤوس الأطفال، في المرأة، في التو انبثق شاب مستطيل الوجه، لم أكن قد لمحته، من خلف الدار، وأقبل نحوي. كان نحيلاً، شامخ الرأس، يبدو نبيل الطلعة، وهو يخب في ردائه الفضفاض. وقف أمامي، اعتصرني بنظرته، سألني بالعربية عما أريد، رددت بالفرنسية قائلاً:

– أهذه مدرسة؟

لم يدرك ماقلت، تردد للحظة، قال:

– انتظر!

غادرني في موضعي لم تكن تلك الكلمة الوحيدة التي يعرفها من الفرنسية، لأنه حين عاد بصحبة شاب تأنق على الطريقة الفرنسية في حلة أوروبية كما لو كان في عطلة قال:

– هذا أخي، إنه يتحدث الفرنسية.

بدا محيا الأخ الأصغر مسطحاً، كئيباً، شأن وجه الفلاحين، كانت سمرته غميقة، لو أنه كان يرتدي زياً آخر لحسبته من البربر، وإن لم يكن من الموصوفين بالوسامة بينهم. كان يتحدث الفرنسية حقاً، سألني عما أنشده، فتساءلت: «أهذه مدرسة؟» داخلني الآن شعور بالذنب لعدم تمكني من كبح

جماح نفسي ومنعها من إلقاء نظرة أخرى على المرأة في الفناء وراءه. الأمر الذي لم تفته ملاحظته.

قال الأخ الأصغر:

– كلا بل كان هنا حفل زفاف بالأمس.

– زفاف؟ بالأمس؟

دهشت كثيراً، والله وحده يعلم السر في ذلك، دفعته استجابتي المفعمة بالاهتمام إلى أن يضيف: لقد تزوج أخي.

بإيماءة من رأسه أشار نحو أخيه الأكبر، ذلك الذي وجدته إنساناً متميزاً، كان ينبغي عليّ عند هذا أن أشكرهما على هذه المعلومات وأن أمضي لحال سبيلي، لكني ترددت، فقال الزوج الشاب بإشارة ترحيب:

– هلم للدار! تفضل!

أضاف أخوه قائلاً:

– أتود مشاهدة الدار؟

أعربت عن شكري، ودلفت إلى الفناء.

تباعد الأطفال، الذين ربما زاد عددهم عن اثني عشر طفلاً، ليفسحوا لنا الطريق، فعبرت الفناء بصحبة الآخرين. انبعثت الشابة الفاتنة واقفة، كانت أصغر مما ظننت، ربما في السادسة عشر من عمرها، قدمها لي الأخ الأصغر باعتبارها زوجة أخيه،

كانت هي العروس التي زفت بالأمس. فتح باب حجرة على الجانب البعيد من الفناء، دعيت للدخول. كانت حجرة صغيرة، نظيفة، مرتبة بدقة، مؤثثة على النمط الأوربي، إلى يسار الباب امتد فراش لشخصين، إلى يمينه انتصبت مائدة كبيرة مربعة يكسوها غطاء من المخمل قاتم الخضرة، لاحت في مزينة لصق الحائط وراء المنضدة زجاجات وكؤوس شراب، أكملت المقاعد المصطفة حول المنضدة الصورة التي يمكن أن تراها في أي بيت متواضع من بيوت البرجوازية الصغيرة في فرنسا ، لم يفصح شيء واحد عن هوية البلاد التي يوجد بها، كانت تلك يقيناً أفضل غرفة بالدار، وكان من شأن أي حجرة أخرى أن تثير اهتمامي بصورة أكبر، لكنهم اعتقدوا أن الترحيب بي هنا هو بمثابة تكريم لي.

التقطت المرأة الشابة، التي تفهم الفرنسية لكنها لم تبادر بالحديث مرة واحدة، زجاجة وكؤوس شراب من المزينة، صبت لي ملء قدم من الشنبس الذي يقطره اليهود هنا، ويسمونه بـ «المحياه» ويعاقرون قدراً كبيراً منه وغالباً ماشعرت خلال حديثي مع المسلمين الذين حرم عليهم تماماً تعاطي أي نوع من المسكرات أنهم يحسدون اليهود على شرابهم ذاك، رفع الأخ الأصغر قدحه مقترحاً نخبي، تناولنا الشراب معاً. جلسنا ثلاثتنا، هو، زوجة أخيه، وشخصي... فيما وقف الأخ الأكبر، العريس، للحظات قصار بالباب مجاملاً، ثم انصرف لشأنه، ربما كان مثقلاً بالأعباء، ولما كان عاجزاً عن الإفصاح أمامي بالفرنسية فقد تركني في رعاية أخيه وزوجته.

تأملتني المرأة بعينيها البنيتين، اللتين لاتطرفان، لم تتحول نظرتها عني قط، رغم أنه لم يبد على وجهها أدنى تعبير ينم عما تفكر فيه بالنسبة لي. كانت ترتدي رداء بسيطاً، مزخرفاً ربما جلب من متجر فرنسي، فكان يناسب الغرفة في هذا الصدد. أما شقيق زوجها في حلته القاتمة الزرقة متقنة الكي على نحو يثير السخرية فقد بدا لي كما لو كان قد خرج لتوه من أحد محال الأزياء في باريس. كان العنصر الوحيد الغريب في الغرفة بأسرها بشرتهما قاتمة السمرة.

طوال طرح الأسئلة المهذبة التي وجهها إليّ الشاب والتي حاولت الإجابة بالقدر ذاته من التهذيب عليها، وإن لم يكن بالتصلب عينه، رحت أحدث نفسي بأن المرأة الجميلة الملتفة بالصمت الجالسة إزائي قد نهضت قبل قليل من فراش عرسها، كان الضحى ينشر سناه، لكنها نهضت متأخرة اليوم يقيناً، كنت أول غريب تلقاه، من عاشت هذه اللحظة الدقيقة في حياتها، كان الفضول الذي أستشعره نحوها لايقل عن فضولها نحوي. لقد اجتذبتني عيناها إلى الدار، هاهي ذي الآن تحدق فيّ بصمت متصد، فيما انهمكت بالحديث وإن لم يكن موجهاً إليها. أذكر أن أملا عبثيّاً ملأ جوانحي خلال تلك الجلسة، الأمل في أنها عاكفة ذهنياً على مقارنتي بعريسها الذي استشعرت في أعماقي وداً كبيراً نحوه، تمنيت لو أنها آثرته عليّ، فَضّلت نبله البسيط وكبرياءه على مظهري الأجنبي المتشامخ الذي من المحتم أنها تصورت أن القوة والثراء يكمنان وراءه. تمنيت لأجله أن تحل هذه الهزيمه بي، ودعوت أن يكلل زواجه بالتوفيق.

سألني الشاب عن موطني.

قلت:

– من انجلترا، لندن.

كنت قد اعتدت أن أطرح هذا التبسيط للحقائق لأتجنب إثارة حيرة الناس. أحسست بخيبة أمل، إلى حد ما، تراوده إزاء ردي، لم أدر، ما الذي كان يؤثر سماعه.

– أتقوم بزيارة لمراكش إذن؟

– أجل، فلم يسبق لي أن شاهدت المغرب قبلاً.

– هل زرت قصر الباهية؟

مضى يسائلني عما إذا كنت قد شاهدت المواضع الرسمية كافة في المدينة وعما إذا كنت قد ذهبت إلى هنا أو إلى هناك، عارضاً في النهاية خدماته كدليل عليّ. كنت أعرف أنك إذا وضعت نفسك لمرة واحدة بين يدي دليل من أبناء المدينة فلن تشاهد منها شيئاً ولكي أضع حداً لهذا الأمل بأسرع ما أستطيع ولإدارة دفة الحديث إلى موضوعات أخرى، أوضحت أنني هنا مع فريق من شركة سينمائية انجليزية، وأن الباشا بنفسه قد زودنا بدليل لإرشادنا. لم يكن لي شأن فعلياً بالفيلم الذي يجري تصويره، لكن أحد أصدقائي الإنجليز، والذي كان يقوم على أمر إخراجه دعاني لزيارة المغرب، وكان صديق آخر بصحبتي هو أمريكي شاب يقوم بدور فيه.

أسفر إيضاحي هذا عن التأثير المطلوب فلم يعد يصر على

أن يطلعني على معالم المدينة، إذ تفتحت أمام عينيه آفاق أخرى مختلفة تماماً. ترى هل هناك عمل يمكن أن نسنده له؟ بمقدوره أن يقوم بكل شيء. كان قد تعطل لوقت طويل عن العمل، وكان محياه الذي تعلوه كآبة ولا مبالاة أحجية بالنسبة لي حتى الآن، فما كان يعكس أي انفعال إلا نادراً وببطء بالغ، حتى لتجبر على الاعتقاد بأنه مامن شيء يدور وراءه. أما الآن فقد أدركت أن حلته ضللتني عن فهم ظروفه، فربما بدت رؤيته للأمور على هذا النحو من الكابة بسبب بطالته التي دامت طويلاً، ولربما حرصت عائلته على تذكيره بهذا الأمر دوماً. كت أعلم أن الوظائف الصغيرة في شركة صديقي قد شغلت جميعها، فحدثته بذلك تواً حتى لايثور ضرب من سوء الفهم. دنا مني عبر المائدة، تساءل فجأة:

– أيهودي أنت؟

ورددت في حماس بالإيجاب، فقد كانت راحة كبرى أن أستطيع الرد بـ «أجل» على شيء ما أخيراً، فضلاً عن هذا فقد كنت حريصاً على معرفة أثر الإقرار بذلك عليه، طغت ابتسامة حتى أضاءت ملامحه جميعها وأسفر عن نواجذه الضخمة المصفرة. التفت إلى زوجة أخيه الجالسة أمامي، أوما برأسه في قوة لينقل إليها فرحته إزاء ماعلم. لم تنبس ببنت شفة، ولئن بدا عليها أي انفعال بالمرة فربما القليل من الضيق، لربما كانت تؤثر أن يكون الغريب مفارقاً في كل شيء ظلت ملامحه على توهجها، فيما شرعت أطرح أسئلة بدوري أجاب بمزيد من الانطلاق فاق ما توقعته منه.

اكتشفت أن زوجة أخيه من «أنزجان» لم تكن الدار ملأى بالناس كعهدها الآن، فقد أقبل الأقارب من الدار البيضاء، ومن انزجان لشهود حفل الزفاف، جلبوا معهم الأطفال ونزلوا جميعاً بالدار معهم، وهذا هو السر في أن الفناء كان مزدحماً على نحو غير معهود، كان اسم الشاب إيلي الدهان، وقد ازدهاه أن يعلم أني أحمل الاسم الأول ذاته، أما أخوه فقد كان ساعاتياً وإن لم يمتلك حانوتاً خاصاً به، إذ كان يعمل لحساب ساعاتي آخر. وجهت إليّ الدعوة لاحتساء أنخاب عديدة، وضعت أمامي صحفة حفلت بفاكهة مجففة مما اعتادت أمي إعداده، وقد تناولت الأنخاب أما الفاكهة فقد اعتذرت عن تناولها... ربما لأنها ذكرتني كثيراً بالوطن، الأمر الذي أثار رد فعل جلى على محيا زوجة الأخ، هو الأسى. ذكرت أن أسلافي قدموا من أسبانيا، تساءلت عما إذا كان لايزال في باب الملاح من يتحدث الأسبانية العتيقة، لم يكن يعرف من يتحدثها، لكنه سمع بأطراف من تاريخ اليهود في أسبانيا، كان هذا المفهوم الغامض أول شيء يبدو مستعصياً على قدرته على التعبير بالفرنسية واصطلاحات بيئته المباشرة، شرع في طرح الأسئلة من جديد. كم عدد اليهود في انجلترا؟ ماهي أحوالهم؟ كيف يعاملون؟ هل من بينهم شخصيات كبرى؟ أحسست فجأة أنني مدين بالاعتراف بالجميل للبلاد التي دان لى الحظ في رحابها، وحيث لي العديد من الأصدقاء، لكي يفهم ما أعنيه حدثته عن يهودي انجلترا حظي بتقدير عظيم في مجال السياسة هو لورد صمويل.

تساءل:

– صمويل؟

عمت البسمة ملامحه كرة أخرى حتى ذهبت إلى القول بأنه ربما سمع به من قبل وألم بطرف من سيرته، لكنني كنت مخطئاً لأنه التفت إلى المرأة الشابة وقال:

– هذا لقب عائلة زوجة أخي، فأبوها اسمه صمويل.

تطلعت إليها مستفهماً، فأومأت بقوة مؤكدة ماقال.

منذ هذه اللحظة غدا أكثر جرأة في أسئلته فقد دفعه قدماً الشعور بأنه مرتبط، عن بعد، باللورد صمويل، الذي ذكرت له أنه عضو في الحكومة البريطانية. هل هناك يهود آخرون في شركتنا؟ أخبرته بأن هناك يهودياً واحداً. أليس باستطاعتي إحضاره لمقابلتهم؟ وعدت بالقيام بذلك. هل هناك أمريكيون معنا؟ كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمعه يردد فيها كلمة «أمريكيون» أحسست أنها كلمة سحرية بالنسبة له، فأدركت لم استشعر خيبة الأمل في بادئ الأمر حين سمع أن وطني هو انجلترا، حدثته عن صديقى الأمريكي الذى ينزل معنا بالفندق نفسه، لكنني اضطررت رغم ذلك إلى القول بأن هذا الصديق ليس يهودياً.

دلف الأخ الأكبر إلى الغرفة كرة أخرى، لربما اعتقد بأنني أطلت المقام، نظر إلى زوجته، كانت لاتزال تحدجني بنظراتها. لمع في خاطري أنني مكثت هنا من أجلها وأني لم أتخل عن أملي في تجاذب أطراف الحديث معها. اقترحت على الأخ الأصغر أن يزورني في فندقي إذا ما رغب في ذلك، انبعثت واقفاً لأمضي في طريقي، ودعت المرأة الشابة، صاحبني الأخوان

كلاهما إلى خارج الدار، توقف العريس عند البوابة بدا كما لو كان يقف في طريقي، خطر ببالي أنه ربما كان ينشد مكافأة ما لقاءِ سماحه لي بإلقاء نظرة على داره، من ناحية أخرى كان الود الذي أكنه له عميقاً وما كانت لدي رغبة في تجريحه بتقديم نقود إليه، لذا تجمدَت في موضعي للحظة وقد غمرني ارتباك وحرج بالغان. توقفت كفي التي دنت من جيبي في منتصف الطريق، فتظاهرت بأني أخمش ذلك الموضع. هب الأخ الأصغر لإنقاذي، قال شيئا بالعربية، سمعت كلمة «يهودي» تتردد مقترنة باسمي، فودعني الأخ الأكبر بمصافحة ودية لاتخلو هوناً من شعور بخيبة الأمل.

أقبل إيلي الدهان إلى فندقي في اليوم التالي، لكني كنت بالخارج، فعاد في وقت لاحق، فألفاني بالخارج كذلك، ولم يصادفه الحظ، ربما اعتقد أنني بالفندق وإن كنت أرفض استقباله. في المرة الثالثة أو الرابعة عثر عليّ أخيراً، دعوته لتناول القهوة، سرنا معاً إلى ساحة جامع الفناء، حيث جلسنا في شرفة إحدى المقاهي. كان يرتدي الملابس ذاتها التي ارتداها بالأمس، لم يكثر من الحديث بداية، لكن وجهه الخالي من التعبير أفصح عن أن ثمة ما يعتمل بذهنه. دنا من منضدتنا عجوز يبيع الآنية النحاسية المنقوشة، من غطاء رأسه الأسود، ثوبه، ولحيته بدا جلياً أنه يهودي. انحنى إيلي في غموض نحوي، كأنما ليفضي إليّ بشيء شديد الخصوصية قال:

– هذا يهودي.

أومأت مغتبطاً، إلى جوارنا كان هناك الكثيرون من العرب

وأوروبيّ أو اثنان. الآن فحسب وقد استقر بيننا التفاهم، الذي أرسينا أسسه بالأمس، انجاب عنه الحرج، فطرح مطلبه.

هل بمقدوري تحرير رسالة باسمه موجهة إلى قائد معسكر بن جرير؟ إنه يرغب في العمل هناك مع الأمريكيين.

سألته:

– أي نوع من الرسائل؟

– قل للقائد أن يسند لي عملاً.

– لكني لا أعرف القائد.

كرر قوله، كما لو كان ما قلته لم يطرق مسمعه:

– اكتب إليه رسالة.

قلت من جديد:

– لكني لا أعرفه.

– قل له أن يسند لي عملاً.

– لكني لا أعرف حتى اسمه، كيف أكتب رسالة له إذا كنت لا أعرف اسمه.

– سأخبرك باسمه.

– أي نوع من العمل تنشده هناك؟

– مشرف نظافة.

تذكرت على نحو غامض أن ذلك هو اللقب الذي يطلق على من يقوم بأعمال الغسيل.

- أذهبت إلى هناك قبلاً.

- كنت أعمل لدى الأمريكيين كمشرف نظافة من قبل.

قالها بفخر شديد.

- في معسكر بن جرير؟

- نعم.

- ولم تركت العمل؟

- لقد فصلت.

قال ذلك بالقدر نفسه من الشعور بالفخار.

- أكان ذلك منذ وقت طويل؟

- قبل عام.

- لماذا لم تتقدم بطلب للعمل مرة أخرى؟

- لا يسمح للمغاربة بدخول المعسكر، فلا يدخله إلا من يعملون هناك.

- ولكن لم فصلت؟

أضفت منتحلاً له العذر:

– ربما أردت ترك العمل في ذلك الوقت، أليس كذلك؟

– لم يكن هناك ما يكفي من العمل، ففصلوا الكثيرين.

– إذن لن تكون هناك وظيفة شاغرة إذا لم يكن ثمة ما يكفي من العمل.

– اكتب للقائد ليسند إليّ عملاً.

– لن تفيد رسالة مني بالمرة لأنني لا أعرفه.

– بالرسالة سيتاح لي دخول المعسكر.

– لكني لست أمريكياً، كما قلت لك، وإنما أنا إنجليزي، ألا تذكر؟

قطب جبينه، كانت تلك هي المرة الأولى التي يصغي فيها إلى اعتراض، أمعن الفكر للحظة ثم قال:

– إن صديقك أمريكي.

الآن وضح الأمر. كان عليّ أنا الصديق الحقيقي لأمريكي بلحمه وشحمه أن أسطر رسالة إلى قائد معسكر بن جرير طالباً منه أن يسند عملاً إلى إيلي الدهان كمشرف نظافة.

قلت إني سأحدث صديقي الأمريكي في الأمر، يقيناً أنه سيعرف ما يصح القيام به في هذه الأحوال، لربما كتب الرسالة بنفسه، لكني بالطبع ينبغي أن أسأله أولاً، وإن كنت أعلم علم اليقين أنه ليس على معرفة بالقائد.

– قل له في رسالتك أن يسند عملاً إلى أخي أيضاً.

– أخوك؟ الساعاتي؟

– لي أخ آخر... أصغر سناً، يدعى سيمون.

– وما عمله؟

– إنه حائك، وكان يعمل لدى الأمريكيين كذلك.

– يعمل كحائك؟

– كان يشرف على كي الثياب.

– وترك العمل لديهم منذ عام أيضاً؟

– لا. لقد فصل منذ أسبوعين.

– ذلك يعني أنه لم يعد لديهم عمل له.

– اكتب عنا كلينا، سأبلغك باسم القائد، فاكتب من فندقك.

– سأحادث صديقي في هذا الشأن.

– هل أتسلم الرسالة من الفندق؟

– عد بعد يومين أو ثلاثة، عندئذ أكون قد حادثت صديقي، وسأخبرك بما إذا كان في وسعه أن يكتب الرسالة من أجلك.

– ألا تعرف اسم القائد؟

– كلا، لقد قلت إنك ستخطرني به، ألم تقل ذلك؟

– هل أحضر اسم القائد إلى الفندق؟

– نعم، عليك بهذا.

– سأحضره لك اليوم، وعليك أن تكتب له طالباً عملاً لي ولأخي.

– أحضر الاسم غدا!

بدأ الضيق ينتابني، أضفت:

– ليس بوسعي أن أعدك بأي شيء قبل أن أحدث صديقي.

لعنت اللحظة التي وطئت فيها عتبة دار عائلة الدهان. لسوف يرتاد الفندق كل يوم، ربما أكثر من مرة في اليوم الواحد، يكرر العبارة ذاتها مراراً، ما كان لي أن أقبل ضيافة هؤلاء الناس. في هذه اللحظة بعينها قال:

– ألا تود معاودة زيارتنا؟

– الآن؟ كلا، ليس لدى وقت الآن، ربما طاب لي ذلك فيما بعد.

انبعثت واقفاً، غادرت الشرفة، وقف مردداً، تبعني. لاحظت تردده، حينما سرنا خطوات قلائل فتساءل:

– هل دفعت حساب القهوة؟

- لا.

كنت قد نسيت ذلك في غمار رغبتي في التخلص منه بأسرع ما يمكن، فلم أدفع ثمن القهوة التي دعوته لمشاركتي في تناولها. غمرني الخجل من نفسي، فتفاقم ضيقي، عدت، دفعت ثمن القهوة، مضيت معه عبر الشوارع المؤدية إلى باب الملاح.

اندمج الآن في دور الدليل السياحي، فراح يشير إلى المعالم التي أعرفها كافة، كانت إيضاحاته تتألف جميعا من عبارتين: هذا هو قصر السياحة هل زرته قبلاً؟» و وهؤلاء هم الصاغة، أشاهدتهم قبلاً؟» لم تكن ردودي أقل اقتضاباً: «نعم، زرته» و«أجل شاهدتهم». راودتني رغبة واحدة محددة: أن أوقفه عن المضي بي إلى أماكن يختارها. لكنه كان قد عقد العزم على أن يجعل نفسه نافعاً بالنسة لي، وتصميم الأغبياء لامجال لزعزعته. حينما أدركت أنه لن يخلي سبيلي لجأت إلى الحيلة، فسألته عن «البريمة» أو قصر السلطان. كان القصر من المعالم التي لم أزرها بعد، فحدثته بذلك، فيما كنت أعلم يقيناً ألا سبيل للسماح للمرء بالدخول.

قال بابتهاج:

- البريمة؟ عمتي تسكن هناك، أتريدني أن أصحبك إليه؟

لم يعد بمقدوري الرد بالنفي، وإن عجزت عن فهم ما يمكن أن تفعله عمته في قصر السلطان. أكانت من المشرفات هناك؟ من القائمات على النظافة؟ طاهية؟ أحببت كثيراً ولوج

القصر من هذا السبيل. لربما استطعت مصادقة العمة والتوصل للإلمام بمعالم الحياة هناك.

في الطريق إلى البريمة انعطف حديثنا إلى الجلاوى باشا مراكش، قبل أيام كان أحدهم قد حاول اغتيال سلطان المغرب الجديد في مسجد المدينة، كانت صلاة الجماعة هي الفرصة الوحيدة المتاحة أمام القاتل للاقتراب من السلطان. كان هذا العاهل الجديد كهلاً وهو عم العاهل الذي عزله الفرنسيون عن العرش، ونفوه من البلاد، ولما كان حزب الحرية ينظر إلى السلطان العم باعتباره صنيعة الفرنسيين فقد عارضه بالوسائل المتاحة له جميعها. ومن بين أبناء المغرب جميعاً لم يكن للسلطان إلا سند قوي واحد هو الجلاوي باشا مراكش الذي عرفه جيلان من المغاربة باعتباره أكثر حلفاء الفرنسيين ولاء لهم. وكان السلطان يصطحبه الباشا معه في ذهابه إلى المسجد، فأطلق هذا النار على القائم بالاغتيال، وأرداه، قتيلا، أما السلطان نفسه فلم يصب إلا بجرح سطحي.

كنت وصديق لي نتجول في هذا الجانب من المدينة قبيل وقوع الحادث، مررنا بالمسجد صدفة، توقفنا لنرقب الجموع وهي تنتظر مقدم السلطان، كانت الشرطة مهتاجة، فقد تعددت محاولات الاغتيال بالفعل، وقد عكفوا على عملهم في صخب وارتباك. نحونا بدورنا جانباً، على نحو غير ودي، لكن أبناء البلاد طردوا بعيداً بصيحات غاضبة في الأماكن ذاتها التي سمح لهم بالوقوف فيها. شعرنا في هذه الظروف بعدم الميل لانتظار مقدم السلطان، فواصلنا جولتنا، عقب ذلك بنصف ساعة ضرب القائم بالاغتيال ضربته، انتشرت الأنباء كالنار في الهشيم عبر المدينة،

أما الآن فها أنذا مع هذا الرفيق الجديد نسير عبر الشوارع ذاتها على نحو ما كنا نضرب يومها... وهو ماجر الحديث إلى تناول الجلاوي.

قال إيلي:

– لايحب الباشا العرب، وإنما وده لليهود، فهو صديقهم، ولا يسكت عن شيء يمسهم.

كان يتحدث أكثر وأسرع من المألوف، بدا ما أفضى به غريباً للغاية، كأنما كان يلم به عن ظهر قلب من كتاب تاريخ عتيق. لم يبد لي حتى باب الملاح نفسه منتمياً إلى القرون الوسطى بقدر ما بدت لي هذه الكلمات عن الجلاوي. اختلست النظر إلى محياه، فيما هو يكررها ثانية: «العرب هم أعداؤه، وهو يحيط نفسه باليهود، إنه صديق اليهود» كان يؤثر لقب الباشا في الحديث عن الرجل على لقب الجلاوي، جعل الكلمة الأولى تبدو لو كانت كلمة «القائد» التى أوشك أن يدفعني بها إلى الجنون قبل قليل، ولكن أكثر كلماته امتلاء بالأمل بغض النظر عن كلمة الجلاوي هي كلمة «أمريكي».

في هذه الأثناء كان قد اجتاز بوابة صغيرة إلى حي يقع خارج سور المدينة. تألفت من طابق واحد، وتجلى فيها الفقر المدقع. لم نلق إنساناً واحداً في الحواري الضيقة المضطربة الحال... لم يكن هناك إلا قلة من الأطفال يلهون هنا وهناك، تعجبت كيف يمكن أن نصل إلى القصر عن هذا الطريق، توقف أمام دور أرفع شأناً، وقال:

– هوذا دار عمتي.

– أليست تقطن في البريمة؟

– هذا هو البريمة، الحي كله يسمى بالبريمة.

– واليهود يمكنهم السكنى هنا أيضا؟

– نعم، فقد سمح الباشا بذلك.

– هل هناك الكثيرون منهم؟

– لا، فمعظم الناس هنا من العرب، لكن بعض اليهود يقطنون هنا كذلك، ألا ترغب في مقابلة عمتي؟ وجدتي تقطن هنا كذلك.

أسعدني أن تتاح لي فرصة أخرى لمشاهدة دار من الداخل، عددت نفسي محظوظاً إذ كانت داراً بسيطة خالية من الادعاء. سرني هذا البدل، ولو أنه خطر لي منذ البدء لفضلته على زيارة قصر السلطان.

طرق الباب، انتظرنا، بعد قليل لاحت بالباب امرأة شابة قوية ذات ملامح ودية صريحة، قادتنا إلى الداخل، بدا عليها الارتباك قليلاً لأن الغرف جميعها كانت قد طليت لتوها ولم يكن هناك مكان تستقبلنا فيه على نحو لائق. وقفنا في الفناء الصغير الذي تطل عليه ثلاث غرف صغيرة. كانت جدة إيلي هناك، لم تبد متقدمة في السن على الإطلاق، حيّتنا بابتسامة، لكنني أحسست بأن حفيدها لم يكن مثار فخر لها على نحو خاص..

ثمة ثلاثة أطفال يصخبون بأعلى أصواتهم، كانوا صغاراً للغاية، ويسعون إلى أن يرفعهم الكبار عالياً، كان الطفلان الصغيران من بينهم يثيران ضجة تصم الآذان فيما راح إيلي يحدث عمته بإلحاف، كان لدية الكثير على نحو مذهل فيما يمكنه محادثتها بشأنه. اكتسبت اللغة العربية عنفاً لم أحسبه قادراً على إظهاره ولكن ربما كان ذلك راجعاً إلى طبيعة اللغة ذاتها.

أحسست بالود نحو العمة، كانت امرأة ناضجة، نظرت إليّ على نحو متسائل وبعيد تماماً عن التخاذل. ذكرتني من النظرة الأولى بالنسوة الشرقيات اللآتي صورهن ديلاكروا. كان لها الوجه المستطيل البدري رغم ذلك، والعيون ذاتها، والأنف المستقيم الذي طال هونا. كنت أقف عن كثب منها في الفناء الصغير، تلاقت نظراتنا في تجاذب طبيعي متبادل، تأثرت كثيراً حتى أني نكست عيني، لكني عندئذ لمحت كاحليها القويين المتمتعين بالجاذبية عينها التي لمحياها، وددت لو كنت جالساً إلى جوارها. لم تنبس ببنت شفة، فيما راح إيلي يصب سيلاً من الكلمات على مسمعها وصراخ الأطفال يزداد ارتفاعاً. كانت أمها على المسافة عينها مني، اعتقدت أنها تظن في الأمر شيئاً على وجه اليقين، فازداد ارتباكي. تكوم الأثاث القليل، بدت الحجرات التي بوسع المرء أن يلمحها خاوية، لم يكن هناك مكان نجلس فيه. تألقت الجدران بالبياض الذي طليت به حديثاً. حاولت أن أتصور زوجها والحسد يخامرني، انحنيت مودعاً، صافحتها وأمها، وانطلقت في طريقي.

صحبني إيلي، حينما أوغلنا في المسير بالحارة قال:

– تعتذر عمتي بسبب تنظيف الدار.

لم أستطع كبح جماح الكلمات، فقلت:

– عمتك سيدة جميلة.

كان عليّ أن أقول ذلك لأحد من الناس، ولربما راودني كذلك أمل يجافي المنطق في أن الرد سيتناهى إليّ مهموساً «إنها تود أن تراك مرة أخرى» لكنه لزم الصمت.

كانت ملاحظته للود غير القابل للتفسير الذي استشعرته نحو عمته من الضآلة حتى أنه اقترح أن أقابل عمه، قبلت ذلك، وقد اعتراني شيء من الخجل لإفصاحي عن مشاعري، لربما كانت في ذلك مجاملة للعرف السائد، ومن شأن مقابلة عم قبيح أو مضجر أن تعادل لقاء العمة الفاتنة.

في الطريق، أوضح لي علاقاته العائلية المتشابكة، كانت بالفعل أكثر امتداداً من أن توصف بالتشابك فحسب، كان أقاربه منتشرين في عدد من مدن المغرب، انعطفت بالحديث نحو زوجة أخيه التي رأيتها بالأمس، فسألته عن أبيها في انزجان، فقال:

– إنه رجل فقير.

لعلك تذكر أن هذا هو الرجل الذي يدعى صمويل. لم يكن مصدر دخل يذكر، وكانت زوجته تعمل بدلاً منه، وحدها هي التي أبقت أسرتها على قيد الحياة. هل هناك الكثير من اليهود الفقراء في مراكش؟ هذا ما أردت أن أعرفه، قال:

– مائتان وخمسون تعولهم الطائفة.

كان يقصد بالفقراء المعوزين، وبدا جلياً أنه يتنصل تماماً من هذه الفئة.

كان للعم الذي يممنا شطره متجراً للحرائر خارج باب الملاح. كان ضئيل الجرم، نحيفاً، شاحباً حزيناً، صموتاً. لم يكن الكثيرون يرتادون متجره، بدا كما لو كان المارة يتحرون الابتعاد عنه. رد على أسئلتي بفرنسية سليمة، وإن كانت أحادية المقاطع إلى حد ما، كانت أحوال العمل سيئة فلا أحد يقبل على الشراء، إذ شح المال في الأيدي، ولم يعد الأجانب يتوافدون على البلاد بسبب محاولات الاغتيال. كان رجلاً هادئاً، وقد شكلت هذه المحاولات دوياً هائلاً بالنسبة له. لم يكن تعبيره عن الضيق مريراً ولا عنيفاً. كان من أولئك الذين يدركون دائماً أن آذانا غريبة قد تكون مرهفة لسماعهم، تردد صوته خفيضاً حتى استطعت بالكاد فهم مايقول.

غادرناه، وكأننا لم نأت إلى متجره قط. أردت سؤال إيلي عن مسلك عمه خلال حفل الزفاف، فلم يكن قد انقضى إلا يومان فحسب في النهاية على احتفال الأسرة بوليمتها الكبرى، غير أني كبحت جماح إشارة ساخرة قبل أن تنطلق، وما كان له أن يفهمها حتى لو أدليت بها. قلت إن علي أن أعود الآن، فصحبني إلى الفندق، في الطريق أشار إلى حانوت الساعاتي حيث يعمل أخوه الأكبر، أطللت إلى الداخل، فرأيته منكباً في حرص على منضدة، يمعن النظر من خلال عدسة مكبرة إلى جزئيات ساعة.

لم أرغب في إزعاجه، فمضيت في طريقي، دون أن ألفت انتباهه إلى وجودي.

توقفت خارج الفندق لأودع إيلي كان تحرره في التعامل مع أقاربه قد منحه شجاعة جديدة، فأعاد طرح موضوع الرسالة، قال:

– سأحضر لك اسم القائد غداً.

– نعم. نعم.

قلتها مسرعاً، والإشفاق من الغد يخالجني.

منذ ذلك اليوم دأب على الحضور إلى الفندق كل يوم، فإن لم يجدني سار الهوينى حول المبنى ثم عاد من جديد، فإن لم يعثر عليّ جثم في الركن المقابل لمدخل الفندق وانتظر صابراً. في الأيام التي يعتصم فيها بالمزيد من الجرأة كان يحتل مقعداً في بهو الفندق، كان يخشى موظفي الفندق من العرب الذين يعاملونه بازدراء.

أحضر اسم القائد، لكنه جلب معه كل الوثائق التي قدر له أن يمتلكها طوال حياته. لم يحضرها معاً. وإنما كان يأتي كل يوم حاملاً وثيقة أو اثنتين خطر بباله إحضارها في ذلك الوقت، بدا واضحاً أنه مقتنع بأن في مقدوري التقدم بالتوصية المطلوبة لقائد معسكر بن جرير إذا أردت ذلك، لم يساوره أدنى شك في نتيجة هذه التوصية إذا ما قدر لها أن تسطر. كانت هناك سمة لاتقاوم للأوراق التي تحمل اسماً أجنبياً في ذيلها. جلب لي شهادات

تتعلق بالوظيفة التي كان يشغلها قبلاً، كان قد عمل حقاً لدى الأمريكيين كمشرف نظافة لفترة قصيرة، وأحضر شهادات أخرى باسم أخيه الأصغر سيمون. لم يأت مرة واحدة دون أن يستخرج ورقة من جيبه والامساك بها أمامي، ينتظر قليلاً حتى استوعب النص، ثم يقترح إدخال تعديلات على الرسالة التي كان عليّ تسطيرها للقائد.

في غضون هذا تحدثت حول الأمر تفصيلاً مع صديقي الأمريكي. عرض أن يوصي بنفسه بإيلي لدى مواطنه لكنه أعرب عن اعتقاده بأن الشاب لن تتاح له فرصة لنيل الوظيفة المطلوبة، فلم يكن على معرفة بالقائد أو بأي ممن لهم شأن في تخصيص الأعمال، لكننا ترددنا في حرمان إيلي من آماله، هكذا تم تسطير الرسالة.

أثار ارتياحي أن أكون قادراً على مبادرته بهذه الأنباء وعلى سبيل التغيير عن المألوف أخرجت الورقة من جيبي.

– اقرأها عليّ.

قرأت له النص الإنجليزي من الألف إلى الياء، وعلى الرغم من معرفتي بأنه لم يفقه كلمة منها فقد تلوتها في بطء بقدر ما وسعني ذلك.

قال ووجهه متصلب كالقناع:

– ترجمها!

ترجمت الرسالة مضيفاً نغمة من التأكيد الوقور على

الكلمات الفرنسية، سلمته إياها، ألقى نظرة على شيء مافيها، فحص التوقيع، لم يكن الحبر قاتما للغاية، فهز رأسه.

قال معيداً إليّ الرسالة، دونما أثر لكبح جماح نفسه:

– لا يستطيع القائد قراءتها، اكتب لي ثلاث رسائل، فإذا لم يرد القائد سأرسل الثانية إلى معسكر آخر.

ساءلته لأخفي دهشتي إزاء صفاقته،

– وفيم تحتاج الرسالة الثالثة.

قال بحسم:

– إنها لي.

أدركت أنه يريد إضافتها إلى مجموعة وثائقه، فرضت الفكرة القائلة بأن هذه الرسالة الثالثة هي الرسالة الأكثر أهمية بالنسبة له نفسها عليّ باعتبارها فكرة لاسبيل إلى تفنيدها.

عندئذ قال:

– أضف عنوانك!

لم يكن هناك ذكر للفندق في الرسالة، وضح أن ذلك ما كان يبحث عنه.

قلت:

– ولكن لامعنى لهذا، فسرعان ما نغادر البلاد، وإذا كانوا

سيردون على الرسالة فهم بحاجة لعنوانك أنت.

قال، دون أن يتزعزع موقفه، ودون أن يترك اعتراضي أدنى أثر لديه:

– أضف عنوانك!

قلت:

– ليكن، لكن عنوانك ينبغي أن يدرج كذلك... والإ فلا معنى للأمر بأسره.

قال:

– لا، أضف عنوان الفندق!

– ولكن ماذا اذا كانوا يريدون إسناد الوظيفة إليك؟ كيف يتصلون بك؟ لسوف نرحل في الأسبوع المقبل، ويقيناً أنهم لن يردوا على الرسالة في غضون هذا الأسبوع.

– أضف عنوان الفندق!

– سأبلغ صديقي، ودعنا نأمل أنه لن يضيق ذرعاً باضطراره إلى كتابة الرسالة من جديد.

لم أتمالك عن قول ذلك عقاباً له على عناده.

كان رده:

– ثلاث رسائل، وأضف عنوان الفندق في الرسائل الثلاث

جميعها.

صرفته متذمراً، وددت ألا ألقاه مرة أخرى أبداً.

في اليوم التالي أقبل، وقد بدا عليه وقار خاص، تساءل:

– أتود مقابلة أبي؟

قلت:

– طيب. أين هو؟

– في المتجر، إذ يمتلك مع عمي متجراً، على مسيرة دقيقتين من هنا.

قبلت مصاحبته، انطلقنا معاً. كان المتجر في الشارع الحديث من المدينة المؤدي إلى باب الجن، كثيراً ما سرت في ذلك الاتجاه، ربما عدة مرات كل يوم، تأملت المحال إلى اليمين واليسار كثيراً. كان هناك الكثير من اليهود بين أصحاب المحال، وكانت وجوههم مألوفة بالنسبة لي. تساءلت أيهم أبوه، استعرضتهم جميعاً في ذهني. ترى أيهم هو؟

غير أني كنت قد تهاونت في تقديركَمّ ونوعية تلك المحال، إذ لم أكد أدلف إلى المحل المنشود حتى غمرتني الدهشة إذ لم يسبق أن جذب انتباهي قط. كان مليئاً حتى نهايته بالسكر في جميع الأشكال، سواء كرقائق أو في أكياس عند المستويات كافة، وعلى جميع الأرفف الممتدة عبر المتجر لم يكن هناك إلا السكر. لم يسبِق لي أن رأيت متجراً لايبيع شيئاً إلا السكر، والله وحده يعلم لِمَ ألفيته مسلياً للغاية. لم نجد الأب

هناك وإنما ألفينا العم الذي قدمني إيلي إليه. كان رجلاً ضئيلاً، مكفهراً، ماكر الوجه، لايوحي بالثقة للحظة واحدة. كسته ملابس أوروبية الطراز، لكن حلته بدت قذرة، بدا جليا أن القذراة تتألف من مزيج غير مألوف من غبار الشارع والسكر.

كان الأب في موضع قريب منا، فأرسل إليه من يستدعيه. في غضون ذلك أعد لي الشاي بالنعناع، على نحو ما جرت العادة. غير أنه في ظل وجود هذا القدر الهائل من السكر أصابتني فكرة حتمية تناول بعضه بشعور من غثيان عابر. أوضح إيلي بالعربية لعمه أنني من لندن. تقدم رجل وقور كنت قد حسبته من عملاء المتجر يعتمر قبعة أوروبية عدة خطوات نحوي، قال:

– إنني بريطاني.

كان يهودياً من جبل طارق، وإنجليزيته. جيدة، أراد الإلمام بعملي، لما لم يكن لدي ما أقوله في هذا الشأن فقد رويت مرة أخرى القصة العتيقة عن إخراج الفيلم.

تحدثنا قليلاً فيما رحت أرتشف قدح الشاي الذي قدم لي. ثم هل الأب مقبلاً، كان رجلاً مهيباً، يطلق لحية شهباء بديعة، يعتمر قبعة يهودية، ويرتدي الزى المميز لليهود المغاربة، بدت رأسه ضخمة، تامة الاستدارة، لاح جبينه عريضاً، لكن ما أحببته فيه أكثر من غيره كان عينيه الضاحكتين. مضى إيلي فوقف إلى جواره، وقال بإيماءة مناشدة:

– أقدم لك أبي.

لم يسبق لي قط أن سمعته يتفوه بشيء بمثل هذا الاقتناع

والجدية، ترددت كلمة «أب» الفرنسية في حلقه جليلة، وما كان يخطر لي قط على بال أن بمقدور شخص بهذا الغباء أن يعبر عن مثل هذا الجلال. فاقت كلمة «أب» في رنينها كثيراً كلمة «أمريكي» التي كان مولعاً بترديدها، أسعدني أن لم يعد ثمة الكثير مما يذكر عن القائد.

صافحت الرجل، حدقت في عينيه الضاحكتين. سأل ابنه بالعربية عن موطني وعن اسمي. لم يكن يعرف كلمة من الفرنسية، فانبرى الابن لدور المترجم بيننا بحماس غير معهود فيه. أوضح للأب موطني، وأنني يهودي، وذكر اسمي. تردد الاسم كالهباء فيما هو يلفظ بصوته ممسوخ الشخصية ونطقه المتهافت - إل- يا- س/ كا- ني-تي؟

كرر الأب الاسم بنغمة مدققة، ردده عدة مرات بصوت عال، ناطقاً كل مقطع على نحو مميز ومنفصل، في فمه غدا الاسم أكثر أهمية وأشد بهاء. لم ينظر إليّ. وإنما تطلع أمامه مباشرة، كأنما كان الاسم أكثر واقعية مني، وكما لو كان جديراً بالتدقيق، أصغيت مندهشاً، وقد تأثرت بعمق، تناهي اسمي إليّ بصوته المتناغم كما لو كان ينتمي إلى لغة خاصة لا أدري كنهها. وازن الاسم برحابة صدر أربع أو خمس مرات، خيل إليّ أنني أصغي لاصطفاق كفتي الميزان، لم يثر ذلك انزعاجي، لأنه لم يكن قاضياً يتأهب لإصدار حكم في شأني. كنت أعرف أنه سيعثر على معني اسمي وهيكله الحق، حينما فرغ من الأمر تطلع إليّ وعيناه تبتسمان في عيني.

وقف هنالك كما لو كان يود أن يقول: هذا اسم طيب، لم تكن هناك لغة يمكن أن يفضي عن طريقها بذلك، طالعته مرتسماً على محياه، استشعرت دفقة حب طاغ تتصاعد في أعماقي نحوه. لم تكن أكثر تصوراتي جرأة قد رسمته على هذا النحو. كان ابنه الأبله وأخوه الماكر كلاهما منتميين إلى عالم آخر يختلف عن عالمه، وحده الساعاتي ورث شيئاً من مظهره، لكنه لم يكن معنا، ولم يكن هناك مجال لآخرين وسط كل هذا السكر. انتظر إيلي أن أقول شيئاً ليترجمه، لكني لم أستطع التفوه بكلمة. عمتني الرهبة فألزمتني الصمت، لربما خشيت كذلك أن أفض سحر رقية ترديد الاسم العجيبة. قضينا نتيجة لهذا لحظات طويلة متناظرين. لو أنه أدرك فحسب لم لا أستطيع الحديث، هكذا رحت أحدث نفسي، لو أن بمقدور عيني الضحك مثلما عينيه، كان حريا بإسناد المزيد إلى ذلك المترجم أن يكون تخليا عن شيء نحرص عليه. وبالنسبة لي لم يكن ثمة مترجم من الاقتدار بحيث ينقل ما يمكن أن يقوله.

انتظر صابراً، فيما أوغلت في رحاب صمتي، أخيراً رف تعبير يحاكي ضيقاً لايكاد يبين على جبينه، حادث ابنه بجمله باللغة العربية، تردد هذا قليلاً في ترجمتها لي:

– يستميحك أبي عذراً لرغبته في الانصراف الآن.

أومأت برأسي موافقاً، صافحني محيياً، ابتسم، بدت ابتسامته وكأنها تقول إن عليه القيام بشيء لا يبتهج لأدائه، يقيناً صفقة من نوع ما، ثم تحول عني، وغادر الحانوت.

مكثت لحظات قصاراً، ثم خرجت مع إيلي بدورنا، في الشارع. حدثته عن الود العميق الذي استشعرته نحو أبيه.

قال لي وفي صوته رنة توقير عميق وأصابعه ترتفع عالية في الهواء حيث ظلت محومة على نحو مؤثر:

- إنه متبحر في العلم، يظل عاكفاً على القراءة طوال الليل.

منذ ذلك اليوم رفع إيلي الكلفة معي، لبيت بحماسي رغباته الصغيرة المرهقة كافة لأنه ابن ذلك الرجل الرائع، بل أوشكت على الشعور بالأسف لأنه لم يطلب المزيد، فما من شيء كان يمكن ألا أقوم به من أجله، سطرت له ثلاث رسائل بالإنجليزية تشيد بحماسه في العمل وإمكانية الاعتماد عليه وأمانته بل وعدم القدرة حقاً على الاستغناء عنه إذا ما أسند إليه العمل، كذلك ذكر أن أخاه الأصغر سيمون الذي لم أره قط لايقل عنه كفاءة في مجالات أخرى، ولم يذكر عنوانهما بباب الملاح.

تألق اسم فندقنا في مقدمة الرسائل، وقع صديقي الأمريكي كلاً منها بحبر أسود سيظل ثابتاً في موضعه دوماً، أما ماهو أكثر من ذلك فإدراج صديقي لعنوانه في الولايات المتحدة، بل ورقم جواز سفره بالرسالة، حينما عرضت على إيلي هذا الجزء من الرسالة لم يكد يصدق أن حظه كان طيباً بهذا القدر.

حمل لي دعوة من أبيه للاحتفال بـ «البوريم» سألني إن كنت أرغب في الاحتفال بهذا العيد معه وعائلته في الدار. رفضت مع شكري الجزيل، فما كان بوسعي تصور خيبة أمل أبيه

إزاء جهلي بالعادات القديمة. كان من شأني اقتراف أخطاء في القيام بها وترتيل الصلوات على نحو ما يفعل شخص لايقرب الصلاة أبداً، جعلني هذا أخجل من مواجهة العجوز الذي أحببته ورغبت في تجنيبه هذا الضيق. تعللت بالعمل، وأرغمت نفسي على رفض الدعوة، لم يقدر لي أن أراه قط مرة أخرى، وإني لقانع بأن رأيته ذات مرة.

الحكواتية والكتبة

تتحلق أعظم الحشود حول الحكواتية، إلى جوارهم يزدحم الناس كأشد ما يكون الزحام، ويمكثون أطول الأوقات التي يقضونها خارج دورهم، تطول العروض، فتقعي حلقة داخلية من المستمعين، يطول الوقت بهم قبل معاودة النهوض، أما الآخرون الذين يصغون واقفين فيشكلون حلقة خارجية، وقد خلبت لبهم كلمات الحكواتي وإشاراته بدورهم، في بعض الأحيان ينشد اثنان منهم على التوالي. تنبثق كلماتهم من أبعاد أشد غوراً، تظل محلقة في الهواء آماداً أطول من كلمات الناس العاديين. لم أفقه شيئاً مع ذلك، فحين أدنو إلى مدى السمع يجمدني الافتنان ذاته في موضعي. لم يكن للكلمات معنى بالنسبة لي، تتدافع بحرارة وانفعال، أما بالنسبة للرجل الذي يتلفظ بها فقد كانت شيئاً غالباً وموضع فخاره، كان يسوقها مرتبة في إيقاع بدا لي دائماً شخصياً إلى حد بعيد، إذا ماصمت فإن ما يعقب صمته يتدفق أكثر قوة وسمواً. كنت أستشعر جلال كلمات بعينها والمضمون المفعم بالتحدي للبعض منها. أثرت فيّ ضروب المديح المحلقة، كما لو كانت موجهة لي، وفي المواقف المفزعة داخلني الخوف، كان الحكواتي يتحكم في كل شيء فالكلمات الأكثر قوة تحلق على وجه الدقة إلى المدى الذي يرغب في أن تنطلق إليه،

ويحتشد الهواء فوق رؤوس المستمعين، بالحركة، وعلى قلة ما فهمت فقد أحسست بأن أموراً عظاماً تجري هنالك.

يرتدي الحكواتية تكريماً لكلماتهم ملابس تخطف الأنظار، إذ يكتسون دائماً ما يميزهم عن السامعين، يؤثرون الأقمشة الأكثر فخامة، وكان واحد منهم أو اثنان يظهران دائماً في مخمل أزرق أو بني، يخيل لمن يراهما أنهما من الشخوص السامية التي تنتمي بشكل ما إلى دنيا الخيال، ماكانوا يكثرون من النظر إلى الناس الذين يتحلقونهم، فقد كانت عيونهم على أبطالهم وإذا ما وقعت نظرتهم على شخص تصادف أنه وقف هناك فإنها تثير لديه شعوراً غامضاً بأنه شخص آخر. بالنسبة لهم لم يكن للأجانب وجود، فهم لا ينتمون إلى عالم كلماتهم. في البداية لم أصدق أني لا أعنيهم كثيراً، بدا ذلك خارقاً في خروجه عن المألوف حتى ليستحيل تصديقه، لذا أمضيت وقتاً أطول من المألوف رغم أني استشعرت وطأة الأصوات في هذا المكان الذي يعج بها... مع ذلك لم ألق اكتراثاً، فيما بدأت أشعر تقريباً بالألفة مع جماعة المستمعين. لقد لمحني الحكواتي بالطبع، لكنني كنت بالنسبة له متطفلاً على حلقته السحرية، وظللت كذلك. حقاً لم أستطع فهمه.

أتت عليّ أحيان من الدهر تمنيت فيها لو ضحيت بالكثير لكي يكون بمقدوري تقدير الحكواتية المتجولين حق قدرهم، ولايزال الأمل يراودني في أن يأتي اليوم الذي أستطيع فيه ذلك. لكنني كذلك أسعدني عجزي عن فهمهم، إذ هم بالنسبة لي جيب باق من وجود قديم لم تمسه يد. تمتعت لغتهم بالنسبة

لهم بالأهمية ذاتها التي تحظى بها لغتي من منظوري الخاص. كانت الكلمات غذاءهم، وماكانوا ليسمحوا لأحد بمبادلتها لقاء شكل أفضل من الغذاء، أحسست بالفخار إزاء شموخ الحكي الذي رأيتهم يهيمنون به على رفاقهم في رحاب اللغة الواحدة، نظرت إليهم نظرة الأخ إلى أشقائه الذين يسبقونه عمراً، ويفوقونه قدرة، في اللحظات السعيدة كنت أقول لنفسي: بمقدوري أيضا أن أجعل الناس يتحلقونني لأحكي لهم الأقاصيص، فيصغون إليّ بدورهم، لكني بدلاً من التجوال من مكان إلى آخر غير دار بمن سألقى في طريقي وأي آذان ستتلقى ما أحكي كرست نفسي للورق، إنني أحيا معتصماً بطاولة للكتابة وباب موصد، غارقاً في الحلم، أما هم فينطلقون في عجاج السوق، وسط مئات من الوجوه الغريبة التي تتغير كل يوم، لاتثقلهم معرفة باردة لاحاجة لهم بها، لا يتأبطون كتباً، لا تبهظهم طموحات، ولا يصطنعون وقاراً أجوف. نادراً ما شعرت بالارتياح وسط المنتمين إلى دائرتنا التي تتخذ من الأدب حياة لها، إذ يساروني ازدراء لهم لأنني أزدري شيئاً يتعلق بي وأحسب أن هذا الشيء هو الورق، أما الآن فقد ألفيت نفسي فجأة وسط مؤلفين أستطيع لقياهم إذ ليس لهم سطر واحد يقرأ.

لكني اضطررت غير بعيد عن هذا المكان في الميدان ذاته للاعتراف بخطورة التجديف الذي أتيته في حق الورق، فعلى مسيرة خطوات قلائل من الحكواتية احتل الكتبة مكانهم. ساد الهدوء هنا، كان ذلك الجانب هو أكثر جوانب ساحة جامع الفناء هدوءاً، لم يعمد الكتبة إلى الإتيان بما من شأنه الإعلان عن

مهارتهم، كانوا رجالاً لطافاً صغار الجرم، يجلسون في صمت، أدوات الكتابة أمامهم، ومامن لحظة تستشعر فيها الانطباع بأنهم في انتظار مقدم الزبائن، حينما يرفعون أبصارهم يتأملونك بفضول خاص، وسرعان ما تنصرف أعينهم عنك إلى شيء آخر. نصبت طاولاتهم متباعدة هوناً، بحيث لاتسمح بوصول صوت الحديث من أحدهم إلى الآخر. كان أكثرهم تواضعاً وربما محافظة يقتعدون الأرض، هاهم هنا عاكفون على التفكير أو الكتابة في عالم حميم منفصل عن الآخرين، يلفهم ضجيج الميدان الهائل، ومع ذلك فهم منبتون عنه، لاح لي أنهم اعتادوا أن يستشيرهم الناس في شكاو سرية، ربما أن ذلك يتم على رؤوس الأشهاد فقد اعتادوا أن يمحو من أسماعهم ما يتناهى إليها، أوشك وجودهم ألا يكون ملموساً، فالأمر المهم هنا هو كبرياء الورق الصامتة.

كان الناس يقبلون عليهم فرادى أو كل اثنين معاً، رأيت مرة شابتين محجبتين تجلسان إلى الطاولة أمام الكاتب، تتمتمان على نحو يوشك أن يستعصي على الإدراك فيماهو يومئ برأسه، في مرة ثانية لاحظت وجود أسرة بكاملها، شديدة الترفع والوقار، تتألف من أربعة أشخاص اصطفوا بإزاء طاولتين والكاتب بينهم. كان الأب رجلاً من البربر، مكتهلاً، قوي الملامح، وسيماً على نحو رائع، وقد ارتسمت الحنكة والحكمة جليلتين على محياه. حاولت أن أتصوره في موقف لايليق به فما استطعت إلى ذلك سبيلاً. هوذا الآن، في موقفه الوحيد هذا الذي يتسم بالدقة والحرج، كانت زوجته إلى جواره، بدا مظهرها مؤثراً كمظهره، حجب الحجاب وجهها كله عدا عينيها النجلاوين، جلست إلى جوارها ابنتاها المحجبتان كذلك، ساد الانتباه والجد الشخوص

الأربعة جميعاً.

رد الكاتب الذي لاح أصغر منهم جرماً بكثير تحيتهم، عكست سيماه انتباهاً حاداً، كان أمراً مفهوماً في ضوء يسار الأسرة وبهائها. ناظرتهم عن كثب دون أن يترامى إلى مسمعي صوت أو التقط حركة، لم يكن الكاتب قد بدأ عمله الفعلي، لربما طرح الأسئلة وتلقيا إجابات عن ماهية الأمر. الذي قدموا لأجله، وعكف الآن على إمعان النظر في أفضل كيفية لصياغة هذا الموضوع. يشعر المرء من مظهر الأسرة بوحدة أعضائها على نحو يجعله يظن بأنهم قد عاشوا معاً منذ الأزل وعرف أحدهم الآخر، واحتل الموضع ذاته منذ بدء الخليقة.

بدوا منتمين أحدهم إلى الآخر على نحو شديد الحميمية حتى إنني لم أسائل نفسي عما قدموا لأجله، ولم أشرع في التساؤل عن هذا إلا بعد ذلك بوقت طويل إثر مغادرتي للميدان. ترى ما الذي تطلّب حضور العائلة بكامل أعضائها أمام الكاتب؟

انتقاء الخبز

اعتدت في الأماسي، عقب حلول الظلام، المضي إلى ذلك الجانب من ساحة جامع الفناء، حيث تبيع النسوة الخبز، كن يقتعدن الأرض صفاً واحداً مترامي الطول، وقد أحكمن وضع الحجاب على وجوههن، فما تتراءى منها إلا العيون. وضعت كل منهن أمامها سلة مغطاة بقطعة من القماش، استقر فوقها عدد من الأرغفة المستديرة المسطحة معروضة للبيع، كنت أمضي وئيداً على امتداد الصف، متطلعاً إلى النسوة وأرغفتهن، كن نسوة ناضجات غالباً، لا يختلفن في هذه الناحية عن خبزهن، أفغمتني رائحة الخبز في الوقت الذي تعلقت نظراتي بأعينهن المكحولة، لم أغب عن أي منهن، فقد رأينني جميعاً، غريبا يبتاع الخبز، لكنني حرصت على عدم القيام بهذا، إذ أردت المضي حتى نهاية الصف، وكنت بحاجة إلى ذريعة للقيام بهذا.

من حين لآخر كانت امرأة في شرخ الشباب تحتل مكانها بين النسوة، فتبدو الأرغفة أكثر اكتمالاً في استدارتها مما يمكن أن تخبزه يداها، كما لو لم يكن لها صلة بإنضاجها، كانت عيناها مختلفتين أيضاً. ماكان يحدث أن تلتزم أي من النسوة السكون طويلاً شابة كانت أم كهلة، فمن حين لآخر تلتقط

إحداهن رغيفاً بيمناها، تلقي به عالياً هوناً في الهواء، تلتقطه مجدداً، تميله إلى هذه الناحية ثم تلك كأنما تزنه، تربت عليه مرتين بصوت مسموع، ثم بعد إكمال هذه الملاطفات تعيد وضعه في أعلى الأرغفة الأخرى. بهذه الطريقة فإن الرغيف نفسه، طزاجته، ثقله، ورائحته يطرح نفسه للبيع، كان ثمة شيء عار ومغر في هذه الأرغفة: أيدي النسوة المشغولة اللاتي كن لولا ذلك كاسيات، ملتفات بالثياب تماماً، باستثناء عيونهن التي تربط الأرغفة بهن، فتوشك أن تقول: «هاك، يمكنني أن أهبك هذا من ذاتي، أمسكه بيدك، فكفي مصدره».

ثمة رجال يمضون إلى جوار الصف، تطل نظرات جريئة من أعينهم، حينما يلمح أحدهم ما يروق له يتوقف، يتلقى رغيفاً بيمينه، كما لو كانت يداه كفتي ميزان، يربت عليه مرتين بصوت مسموع، فإذا ما وجده أخف مما يبغي، أو لم يلق لديه قبولاً لسبب آخر، أعاده إلى مكانه فوق الأرغفة الأخرى. لكنه في بعض الأحيان يحتفظ به، فتوشك أن تلمح فخار الرغيف والنحو الخاص الذي يفوح عليه بعبقه الخاص. يدس الرجل كفه اليسرى في طيات ردائه، يخرج قطعة نقدية صغيرة لاتكاد تبين إلى جوار الشكل الضخم للرغيف، يلقي بها للمرأة، ثم يختفي الرغيف تحت الرداء... فيستحيل على المرء أن يحدد موضعه... ويمضي الرجل في طريقه.

حديث الإفك

كان الموضع الأثير لدى الصبية المتسولين بقرب مطعم «الكتبية» ، وقد اعتدنا جميعاً تناول وجبتي الغذاء والعشاء في هذا المطعم، من ثم كانوا يعرفون أننا لن نفلت منهم، غير أنهم شكلوا بالنسبة للمطعم الحريص على سمعته زينة غير مرغوب فيها، حينما يدنون من الباب بأكثر مما ينبغي يهرع صاحب المطعم إلى طردهم، كان من الأفضل لهم أن يحتشدوا في المنعطف المقابل للمطعم، عادة ما كنا نصل إلى المطعم لتناول الطعام في جماعات صغيرة يتألف كل منها من ثلاثة أو أربعة أشخاص، وكان بمقدورهم الالتفاف حولنا سريعاً بمجرد أن تلمحنا عيونهم.

سئم البعض ممن قضوا شهوراً بالمدينة إعطاءهم القطع النقدية، تردد البعض قبل منحهم شيئاً بالنظر لخجلهم من إظهار «الضعف» أمام أصدقائهم. في النهاية يتعين عليك أن تعرف كيف تعيش هنا لبعض الوقت، وقد ضرب المقيمون الفرنسيون بالمدينة مثلاً، يمكنك أن تعتبره طيباً أو سيئاً بحسب وجهة نظرك، بعدم دس أيديهم في جيوبهم مطلقاً لتقديم هبة لشحاذ من حيث المبدأ، أيا كانت صفاقته. أما أنا فقد وصلت حديثا إلى

المدينة ولم يطل بي المقام فيها، وما كنت لأكثرت بما يظنه الناس بي، فليظنوا بي الحماقة إذا ما طاب لهم ذلك، لقد ربطتني المودة بهؤلاء الأطفال.

إذا ما تصادف أنهم لم يلتقوا بي كان الأسى ينتابني، فأسعى إليهم دون أن أتيح لهم إدراك تعمدي لهذا. أحببت إيماءاتهم المفعمة بالحيوية، الأصابع الصغيرة التي يشيرون بها إلى أفواههم وهم يئنون وبتعبيرات ضارعة على الوجوه يصيحون بالفرنسية: «طعام! طعام!» والوجوه صامتة الحزن، كما لو كانوا حقاً على وشك الزنهيار من فرط الضعف والجوع. أحببت مرحهم الصاخب فور تلقيهم الهبات والانطلاق العاجل المبتهج الذي يندفعون به حريصين أشد الحرص في امساكهم بغنيمتهم، التغير المذهل في ملامحهم، فهاهم المحتضرون فجأة يتدفقون ببركة الحياة، أحببت حيلهم الصغيرة، الطريقة التي يجلبون بها إليّ أطفالاً رضعاً ممسكين بأكفهم الدقيقة التى لاتكاد تستشعر ما حولها، رافعين إياها نحوي ضارعين: «له أيضاً، له أيضاً، طعام! طعام!» لكي يضاعفوا الهبات التي حصلوا عليها.كانوا كثيربن، فحاولت أن أقسط بينهم، لكنني بالطبع كنت أوثر بعضهم، أولئك الذين تبدت وجوههم من الحسن والتدفق بالحيوية حتى إني ما كنت لا عرف السام إذ اتطلع إليها. كانوا يتبعونني حتى باب المطعم مستشعرين الامان في ظل حمايتي لهم، كانوا بعرفون مودتي لهم، وما كان بوسعهم مقاومة إغراء الدنو من ذلك المكان الأسطوري الذي حظر عليهم دخوله، والذي كان الناس يأكلون فيه حتى الاكتظاظ.

لم يكن صاحب المطعم، وهو فرنسي ذو رأس مستدير

أصلع وعينين تحاكيان ورق الذباب، اعتاد أن يحيي مرتادي مطعمه بنظرات ودودة حميمة، ليطيق التفاف الصبية المتسولين حول مطعمه، كانت الخرق التي تكسوهم شيئاً فظيعاً بالنسبة له، وكان يرغب في أن يأمر زبائنه المتآنفون بطعامهم باهظ الأسعار، وهم يشعرون بالارتياح، دون أن يذكرهم شيء دوما بالجوع والقمل. حين أطل بالباب ويتصادف وجوده هناك ويلمح جمع الصبية في الخارج كان يهز رأسه ضيقاً. وربما أني كنت عضواً في مجموعة نصم خمسة عشر انجليزياً يتناولون وجبتين يومياً دون انقطاع في مطعمه فما كان ليجرؤ على التلفظ بشيء أمامي، لكنه كان ينتظر الفرصة المناسبة لمعالجة الأمر بروح من الدعابة المرحة.

ذات ظهيرة كان الجو فيها حاراً على نحو خانق ترك باب المطعم مفتوحاً لعل نسمة هواء رخية تلج المطعم. جلست مع صديقين إلى إحدى الموائد الشاغرة قرب الباب المفتوح بعد أن أفلتنا من هجمة الأطفال، كان بوسعهم مشاهدتنا، فظلوا حيث كانوا بالخارج، جد قريبين من الباب، أرادوا مواصلة التعبير عن مودتهم لنا ولربما كذلك أن يروا ما الذي سنتناوله من ألوان الطعام، راحوا يشيرون لنا، بدوا مستمتعين بصفة خاصة بأشكال شواربنا، واصلت صبية من بينهم، ربما كانت في العاشرة من عمرها، وأكثرهم وسامة، والتي كانت تحس منذ وقت طويل بإيثاري لها، الإشارة إلى الفراغ المحدود بين شفتها العليا وأنفها جاذبة شاربا وهمياً بين أصبعيها ومنتزعة شعيرات منه بقوة، راحت تضحك ملء قلبها، وهي عاكفة على هذا، والأطفال الآخرون يشاركونها الضحك.

أقبل صاحب المطعم إلى مائدتنا ليتلقى طلباتنا، فشاهد الأطفال الضاحكين، ابتسم ابتسامة عريضة، قال لي:

– عاهرة صغيرة مناسبة، تلك البنت!

جرحني ذلك التعريض، ربما لم أكن كذلك أرغب في تصديقه لأنني كنت مولعا حقا بصبيتي المتسولين، تساءلت ببراءة:

– ماذا... في هذا العمر؟ يقيناً هذا مستحيل!

قال:

– هذا هو ما تحسبه، بمقدورك أن تظفر بأي منهم لقاء خمسة عشر فرنكا، لسوف يمضون جميعاً معك عبر المنعطف على هذا الأساس.

انتابني حنق عظيم، عارضته محتداً:

– ولكن هذا مستحيل! لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً!

– لا أراك تلم بما يحدث هنا، عليك أن ترى القليل من حياة الليل بمراكش، لقد عشت هنا وقتا طويلا، حين قدمت إلى هنا... كان ذلك أثناء الحرب كنت لا أزال عزبا.

ألقى نظرة قصيرة، وإن كانت جادة باتجاه زوجته العجوز الجالسة دوماً أمام طاولة الدفع، أضاف:

كنت مع صديقين لي، وقد قمنا بجولات بديعة. ذات مرة قادنا أحدهم إلى دار لم يكد المقام يستقر بنا فيها حتى تحلقنا

جمع من الفتيات الصغيرات، كن جميعاً عاريات، أقعين عند أقدامنا، رحن يتوددن إلينا من كافة الاتجاهات، ولم تكن أي منهن أكبر من هذه الصبية الواقفة هناك، وبعضهن أصغر منها.

هززت رأسي معلنا عدم تصديقي.

– لم يكن ثمة مالا يمكنك القيام به، أمضينا وقتاً أعادنا إلى مطالع الصبا، واستمتعنا كثيراً. ذات مرة قمنا بحيلة بديعة، لابد لي أن أحدثكم بها، كنا ثلاثة، صديقان بالإضافة لي، مضى أحدنا لغرفة إحدى الفاطمات – اسم فاطمة هو الاسم الذي يشير به الفرنسيون في ازدراء إلى النساء من أهل البلاد قاطبة– لم تكن صبية تلك المرأة، وقفنا نحن الاثنين خارجاً محدقين إلى الداخل من ثقب صغير. ساومها طويلاً في أول الأمر، اتفقا على ماستقاضاه، أعطاها النقود، فدستها في منضدة إلى جوار الفراش، ثم أطفأت النور واضطجعا سوياً، شاهدنا ذلك كله من مكمننا. ما إن حل الظلام حتى انسل أحدنا إلى الغرفة في هدوء بالغ وزحف حتى بلغ المنضدة إلى جوار الفراش، دس يده في الدرج، وفيما عكف الآخران على ماهما فيه استرد النقود.. ثم زحف عائدا كرة مسرعاً، وانطلقنا سويا مبتعدين، سرعان ما انضم إلينا صديقنا، كان معنى ذلك أنه تمتع بوقته مع الفاطمة دون مقابل، كما ترى، بوسعك أن تتصور كم أغرقنا في الضحك! وماتلك إلا واحدة من الحيل والأحابيل التي اعتدنا أن ننصب شراكها.

كان بمقدورنا تصور الأمر لأنه انبعث الآن ضاجاً بالضحك، حتى اهتز جسمه، وبدت نواجذه للعيان، لم نكن قد

لاحظنا أن له هذا الفم الضخم إذ لم يسبق لنا أن رأيناه على هذا النحو قبلاً، فقد اعتاد التجول في أرجاء المطعم في جلال ووقار، مراعياً مطالب زبائنه من ذوي الحظوة بتحفظ تام، يشير إلى أن مايطلبه المرء سواء عنده، لم يبد النصح الذي يسوقه من قبيل التطفل وإنما تبدى كما لو كان يسامر دوما لصالح الزبون، أما اليوم ومع ضياع كل هذا الاحتشام فقد أدخلت طرفته بهجة عارمة على نفسه، ولابد أن ذلك الوقت كان زمناً رائعاً بالنسبة له. لم يأت إلا أمرا واحدا أعاد إلى الأذهان سلوكه المعتاد، ففي غمار حديثه دنا أحد الندل من مائدتنا، فعجّل بإرساله في مهمة ليحول دون استراقه السمع لما كان يرويه لنا.

غير أننا اعتصمنا ببرودنا الأنجلو- ساكسوني. كان صديقاي وأحدهما من نيوانجلاند والآخر رجل إنجليزي قح بالإضافة إليّ أنا الذي عشت في هذا المناخ خمسة عشر عاما يعمنا شعور واحد، هو الاشمئزاز الممزوج بالازدراء، كنا ثلاثيا بدورنا، لربما أحسسنا على نحو ما بالذنب نيابة عن ذلك الثلاثي الآخر الذي تحالف أعضاؤه لسلب امرأة مسكينة من نسوة هذه البلاد ما كسبته. كان قد روى القصة بملامح تتألق فخاراً، عاجزاً عن إدراك ما يتجاوز الجانب المضحك في الأمر، فتجاوز حماسه بسماتنا الممرورة وإيماءات تقديرنا المفعمة بالحرج.

كان الباب لايزال مفتوحاً، والأطفال على حالهم بالخارج، قانعين بالصبر والانتظار، أحسوا بأنهم لن يطردوا

بعيداً طالما استمر هذا الحكي، ذكرت نفسي بأنهم لايستطيعون إدراك ما يقول. لقد بدأ بازدراء هائل لهم فانتهى في لحظات إلى

أن يغدو موضعاً للازدراء، وسواء أكان ما يقول عنهم إفكاً أم حقاً، وأياً كان ما يأتونه فقد تدنى الآن كثيراً بالقياس لهم. وددت لو أنه كان هناك عقاب يتوقف مصيره بمقتضاه على شفاعتهم.

رغبة الحمار العارمة

طاب لي أن أعود من جولاتي المسائية عبر شوارع المدينة عن طريق ساحة جامع الفناء، كان عبور هذا الميدان الهائل وهو خاو على عروشه، أمراً غريباً، اختفى البهلوانات والراقصون وملاعبو الحيات وملتهمو النيران، أقعى رجل ضئيل الجرم على الأرض وحيداً، وأمامه سلة صغيرة للغاية من البيض، ومامن شيء أو أحد بقربه، راحت مصابيح الأسيتلين تمج نورها هنا وهناك، فتضفي على الميدان رائحتها. في المطاعم. كان رجل أو اثنان لايزالان عاكفين على تناول حساءيهما، لاحا وحيدين، كما لو كانا لايدريان إلى أين يمضيان. حول حواف الميدان ثمة أناس يتأهبون للرقاد، رقد بعضهم، رغم أن معظمهم أقعى على الأرض، وقد أرخوا جميعاً عباءاتهم على رؤوسهم، كانوا متجمدين في رقادهم، فما يكاد يخطر ببالك أن ثمة أنفاساً حية تتردد تحت أطراف العباءات.

ذات ليلة رأيت جمعاً غفيراً متزاحماً من الناس متحلقاً وسط الميدان ومصابيح الأسيتلين تنير المشهد على وجوههم وأجسادهم، التي يحاصرها الضوء الضاري، الذي تمجه المصابيح بمظهر قاس ومخيف، ترامت إلى مسامعي أصوات آلتين من آلات

الموسيقى التي يعزفها المغاربة، وصوت رجل يخاطب الأطلال إلى قلب الحلقة، كان ما رأيته رجلاً ينتصب في منتصف الحلقة يحمل عصا يلاحي بها حمارا.

من بين كل حمير المدينة البائسة كان هذا الحمار أشدها إثارة للإشفاق، نتأت عظامه، لاح متضوراً من الجوع تماماً، بدا جلده مهترئاً، ظهر جلياً أنه لم يعد بوسعه تحمل أقل الأعباء، فلا يملك المرء إلا أن يسائل نفسه كيف لاتزال قوائمه تحمله. انغمس الرجل في حوار هزلي معه، كان يحاول دفعه إلى شيء ما، ظل الحمار على عناده، طرح عليه أسئلة، وحينما رفض الإجابة عنها انفجر النظارة الذين تناهبهم النور والظل ضاحكين، ربما كانت تلك رواية يضطلع الحمار بدور فيها، لأنه بعد هذر متطاول بدأت الدابة المسكينة تستجيب وئيداً للموسيقي، إذا كانت العصا لاتزال تشهر فوق رأسها، ازدادت سرعة الرجل في الحديث بالغاً حد الصخب تقريباً ليدفع الحمار إلى الاستمرار، لكن كلماته رنت في مسمعي كما لو كان هو بدوره هزأة يضحك الناس منها. تواصلت الموسيقى، وبدا النظارة الذين لم يعد ينقطع لهم ضحك الآن في مظهر همجيين يلتهمون لحوم البشر أو لحوم الحمير.

لم أمكث إلا وقتا قصيراً، من ثم فليس بوسعي أن أحدد ما وقع عقب ذلك، إذ غلب اشمئزازي فضولي. كنت استشعر منذ وقت طويل إشفاقاً على حمير المدينة، كانت كل خطوة تتيح الفرصة لاندلاع الغضب في أعماقي إزاء الطريقة التي تعامل بها هذه الحمير، وإن لم يكن هناك بالطبع ما يمكنني القيام به، غير

أنه لم يحدث قط أن مر بطريقي مثل هذا الحمار البائس، وفي طريقي إلى الفندق رحت أعزي نفسي بأنه سينفق يقيناً هذه الليلة.

كان اليوم التالي هو السبت، مضيت إلى ساحة جامع الفناء في ساعة مبكرة من الصباح. كان السبت واحداً من أكثر الأيام زحاماً بالنسبة للساحة. تكاكأ النظارة والمؤدون والسلال إلى جوار المحال في الميدان، كان من العسير على المرء أن يشق طريقه وسط الزحام. وصلت إلى الموضع الذي وقف فيه الحمار البارحة، تطلعت حولي، فلم أستطع تصديق ما رأته عيناي، كان الحمار يقف وحيداً، تفحصته عن كثب، فلم يعد لدي شك في أنه حمار البارحة. وقف صاحبه غير بعيد عنه، يتبادل الحديث في هدوء مع قلة من الناس، لم تلتف حلقة حوله بعد، ولم يأت الموسيقيون، بدا جلده تحت سنا الشمس أكثر بؤسا مما كان عليه ليلاً، ألفيته أكثر شيخوخة، أشد سغبا، وأعظم بؤساً بوجه عام.

فجأة شعرت بشخص خلفي، وبكلمات غضبى تخترق مسمعي، كلمات لم أدرك معناها، التفت لاتبين الأمر، فغاب الحمار عن ناظري لحظة واحدة، كان الرجل الذي سمعت صوته إلى جواري واقفاً في الزحام، غير أنه تبين أنه كان يهدر مهدداً شخصاً آخر، فالتفت كرة أخرى إلى الحمار. لم يتزحزح قيد أنملة من موضعه، لكنه تحول، فأوشك أن يغدو، حماراً آخر، إذ تدلى بين قائمتيه الخلفيتين عضو هائل فجأة راح يتقافز إلى الأمام ثم يعاود الرجوع إلى موضعه، ليواصل انتصابه من جديد،

بدا العضو أضخم من العصا التي كان الرجل يهدده بها البارحة. في اللحظة المحدودة التي غاب فيها عن نظري طرأ عليه تحول هائل، لست أدري ما الذي رآه أو شمه أو استمع إليه، لكن ذلك المخلوق البائس، المكتهل، المتهافت، الذي كان على شفا الانهيار، الذي لم تعد له جدوى إلا أن يكون هدفاً لحوار فكاهي ساخر، والذي لقي اسوأ معاملة عومل بها حمار في مراكش، هذا الكائن الذي تدنى فغدا أقل من الهباء، ذاب عنه لحمه، وتقضقضت عظامه، وفقد القوة، وتداعى جلده، كانت تكمن بداخله شهوة عارمة جعلني مرآه، وهو في قبضتها، أنسى كل شيء عن بؤسه، كثيراً ما أفكر في ذلك الحمار، أذكر نفسي بأن قوى هائلة كانت تكمن في أعماقه حينما خيل إليّ أنه لم يعد لديه شيء منها، وإني لأتمنى لكل المعذبين أن يشعروا بمثل رغبته العارمة حين يعتريهم البؤس.

شهرزاد

كانت تملك المشرب الفرنسي الصغير المسمى «شهرزاد»، وهو المشرب الوحيد في المدينة الذي يفتح أبوابه طوال الليل. في بعض الأحيان يظل خاوياً على عروشه، في أحيان أخرى يرتاده ثلاثة أو أربعة أشخاص، لكنه حين يزخر بمن فيه، وغالبا ما يكون ذلك بين الثانية والثالثة من بعد منتصف الليل، فإن بوسع المرء أن يسمع كل ما يقوله الزبائن الآخرون، فتتشابك خيوط حواره مع الجميع. كان المكان ضيقاً، وما إن يجلس أو يقف عشرون شخصاً بداخله حتى تبدو الجدران كما لو كانت توشك على الانفجار.

عند المنعطف، على بعد ما لا يزيد عن عشر خطوات من المشرب، تترامى ساحة جامع الفناء. من المستحيل تصور مفارقة أعظم من تلك الموجودة هنا، فحول أطراف الساحة يرقد البؤساء ملتفين بهلاهيلهم، غالباً ما يتداخلون مع ما يحيط بهم في حميمية تلزم المرء بالحذر، وإلا تعثر بهم، وكل من يسير في الميدان بهذه الساعة من الليل هو موضع شك، وعلى المرء أن يحذره، حينما تبدأ حياة المشرب الصغير تكون الستر قد أسدلت منذ وقت طويل على حياة الجامع، ويتخذ رواده المظهر الأوروبي

قاعدة في ملابسهم، حيث يلم به الأمريكيون والفرنسيون والإنجليز، غير أن العرب كانوا يرتادونه بدورهم، كانوا يرتدون الزي الأوروبي، أو يعكفون على الشراب، وهو ما كان كافياً في ذاته على الأقل من منظورهم لجعلهم عصريين وأوروبيين. كانت أسعار المشروبات باهظة، فما كان يقدم على ارتياد المكان إلا الميسورون من العرب، وما كان أي من البؤساء الراقدين في هلاهيلهم بالميدان لتضم جيوبه ما يتجاوز فرنكين فرنسيين، فيما كان زبائن «شهرزاد» يدفعون خمسة عشر ضعف هذا المبلغ لقاء قدح صغير من البراندي، وكانوا يحتسون الكثير منها في تتابع سريع. اعتاد أولئك الراقدون في الميدان سماع الموسيقى العربية التي تفوح بها عاليا أجهزة المذياع في كل متجر يضم رفا يعلو رؤوس الزبائن، أما في «شهرزاد» فلا شيء إلا الموسيقى الأوروبية الراقصة المهموسة التي يستشعر كل من يلج المكان فيضاً منها، فقد حرصت السيدة «مانيون» صاحبة المشرب على توفير أحدث المعزوفات وأكثرها شعبية، وكانت مجموعة تسجيلها مصدر اعتزازها، وكل أسبوع تقريبا تقبل حاملة مجموعة جديدة منها ابتاعتها لتوها، تديرها لرواد مشربها، تهتم اهتماماً مفعماً بالحيوية بذوق كل منهم في الاختيار.

ولدت في شنغهاي لأب فرنسي وأم صينية، أجرت عملية جراحية في عينيها للتخلص من منظرها اللوزي الشرقي، فلم يعد لهما إلا القليل من أصلهما الشرقي، وما كانت لتحتفظ بأصل أمها الصيني سراً، عاشت في مستعمرات فرنسية عديدة قبل أن يستقر بها المقام في المغرب. كان لديها ما تمقته في كل أمة، لم يسبق لي قط أن صادفت ضروب تحامل، ساذجة، ولا تراجع

فيها، كتلك التي كانت لدى هذه المرأة، لكنها ما كانت تطيق سماع كلمة واحدة تنال من الفرنسيين والصينيين، معقبة دوما بقولها: «كانت أمي صينية وأبي فرنسي» بدت سعيدة ومزهوة بنفسها بالقدر ذاته الذي تحامل به على زبائنها الذين يخالفونها في المنشأ.

اكتسبت ثقتها نتيجة لحوار طويل دار بيني وبينها حين كنا وحدنا ذات مرة بالمشرب. في بعض الأحيان عندما ينصرف أصدقائي من الشركة السينمائية الإنجليزية دون أن يدفعوا الأنخاب التي أمروا بها للآخرين كنت أتولي ذلك عنهم، الأمر الذي دفعها للاعتقاد بأنني ثري وإن كنت أتكتم ذلك، على عادة أثرياء الإنجليز الذين نادراً ما ينعكس ثراؤهم على ما يرتدون. ولربما لمّح شخص أراد توريطها بأنني طبيب نفسي، ولما كنت أجلس غالباً في سكون تام دون أن ألفظ بكلمة ثم عقب ذلك أسائلها مطولاً عن الزبائن، فقد قررت تصديق ما روي لها في هذا الصدد، ولم أقم بما من شأنه تكذيب ذلك، حيث ناسبني الأمر، إذ دفعها إلى الإفضاء لي بالمزيد عن زبائنها.

كانت متزوجة من السيد مانيون، هو رجل طويل القامة، قوي البنية، سبق له أن عمل بصفوف الفرقة الأجنبية، وكان يقدم لها مساعدة ثمينة ومحدودة في المشرب، حين يخلو المكان من الزبائن كان يؤثر النوم على النضد في القاعة الصغيرة، ولكن ما إن يتوافد من يعرفهم حتى يمضي بهم إلى مبغى فرنسي يدعى بـ «الريڤييرا» يقع على مسيرة دقائق من المشرب، كان يؤثر قضاء ساعة أو ساعتين هناك، ثم يعود مع ضيوفه غالباً، فيخبرون زوجته عن المكان الذي قصدوه، ويحدثونها بما إذا

كانت فتيات جديدات قد أقبلن إلى المبغى، يحتسون قدحاً، وربما مضوا فيما بعد مصطحبين زبائن آخرين معهم عائدين إلى «الريڤييرا» كان ذلك الاسم هو الكلمة الأكثر تردداً في مشرب «شهرزاد».

للسيد مانيون وجه مستدير، ناعس، صبياني الملامح، يعلو أكتافاً جرمة، تبدو ابتسامته مسترخية، يتحدث وئيداً وقليلاً، على نحو مدهش، بالنسبة لما اعتاده الفرنسيون. كان بوسع زوجته أيضاً أن تلزم الصمت، فلم تكن خالية من الحساسية، وما كانت لتدس أنفها في شؤون الآخرين من تلقاء ذاتها، لكنها إذا ما شرعت في الحديث فإنها تجد من المتعذر عليها أن تتوقف، وذلك في الوقت الذي يعكف فيه زوجها على غسل بعض الأقداح أو يغط في نومه أو يمضي إلى «الريڤييرا» إعتادت السيدة ألا تسمح لزوجها القوي بإلقاء الزبائن السكارى الذين انقلب مسلكهم إلى العدوانية إلى خارج المشرب، فقد كانت تعالج هذا كله بنفسها، كان ذلك مشربها، ولهذه الحالات احتفظت بهراوة مطاطية تخفيها خلف النضد حيث تحفظ تسجيلات الحاكي كذلك، تعمها البهجة حين تطلع أصدقاءها على هذه الهراوة، وهو ما تصحبه دائما ضحكة موحية يعقبها قولها: «إنها للأمريكيين وحدهم» فقد كان الأمريكيون السكارى هم المشكلة الأكبر، الأمر الذي جعلهم يستحقون عن جدارة مقتها الجارف، فمن منظورها كان هناك نوعان من البرابرة: أبناء المغرب والأمريكيون.

تبين أن زوجها لم يكن في صفوف الفرقة الأجنبية طوال عمره، فذات يوم التفت إليّ بطريقته المتراخية الوسنى وسألني:

– أنت طبيب، هل هذا صحيح، طبيب للمجانين؟

سألته مدعياً الدهشة:

– ما الذي يجعلك تظن هذا؟

– سمعنا بهذا؟ لقد قضيت عامين في مستشفى للمجاذيب قرب باريس، كنت أعمل مشرفاً هناك.

– إذن فلك بعض الإلمام بطب الأمراض النفسية.

حينما قلتها بدا عليه الرضا لهذا الإطراء، فمضى يحدثني عن عمله كمشرف، وكيف أنه عرف المرضى جيداً وغدا قادراً على أن يحدد على وجه الدقة أيهم خطر السلوك وأيهم ليس كذلك. كان لديه تصنيفه الخاص والبسيط تبعاً لمدى خطورة مظهرهم بالنسبة له. ساءلته عن المجاذيب في مراكش، فذكر حالة أو حالتين معروفتين في المدينة. منذ ذلك المساء اعتاد معاملتي كما لو كنت رئيساً له في نوعية العمل ذاتها، درجنا على أن نتبادل النظرات حين يبدي أحد في المشرب ما يدل على قليل من ذهاب العقل، وبين الحين والآخر كان يقدم لي قدحاً من البراندي على حساب المشرب.

كانت للسيدة مانيون صديقة، واحدة فحسب، تعتمد عليها كثيراً. كانت تدعى جانيت، وترتاد المكان كل ليلة، عادة ما تقتعد كرسياً عالياً أمام النضد، تلبث في موضعها منتظرة. بدت صغيرة السن، أنيقة الملبس، بشرتها شديدة الشحوب، شأن من اعتاد السهر طوال الليل والرقاد نهاراً. كانت عيناها جاحظتين قليلاً، بين لحظة وأخرى تعاود النظر إلى باب المشرب، لترى إن

كان شخص بعينه قد أقبل أم لا، وبدتا كما لو ألصقتا بزجاج الباب.

راودها الحنين إلى شيء ما يقع لها، كانت في الثانية والعشرين من عمرها، لم تسافر قط خارج المغرب، ولدت في مراكش لأب إنجليزي، مضى إلى داكار دونما اكتراث بها، وأم إيطالية. كانت تحب سماع اللغة الإنجليزية لأنها تذكرها بأبيها، ولم يقدر لي أبداً اكتشاف ماكان أبوها يصنعه في مراكش ولم غادرها عقب ذلك إلى داكار، بين الحين والآخر تأتي جانيت أو السيدة مانيون على ذكره بمزيد من الفخار، وتشيران دون صريح القول إلى أنه اختفى بسببها، أي بسبب الابنة، يقيناً كانتا تودان لو كان الأمر كذلك لأنه بسبب عدم اكتراثه بها كان مما له دلاله ايجابية علي الأقل تجنبه المدينة التي تقطنها. لم تأتيا على ذكر الأم قط، فأحسست بأنها ربما لاتزال تعيش في مراكش، لكنها ليست مما يمكن أن يكون موضع مباهاة، ربما كانت فقيرة، أو لا تمتهن مهنة شريفة، أو ربما لم يكن الإيطاليون يحظون بمكانة كبيرة لديهما. كانت جانيت تحلم بزيارة إنجلترا التي كانت تحس بفضول بالغ إزاءها، لكنها كانت على استعداد للذهاب إلى أي مكان حتى إيطاليا، فمضت تنتظر الرحالة النبيل الذي سيرحل بها بعيداً عن المغرب. خلال الفترات التي يخلو فيها المشرب من رواده كانت جوانحها تفيض بالتوقع، لاتتجاوز المسافة بين مقعدها والباب عشرة أقدام، ولكن في كل مرة يفتح الباب كانت تنكمش، كما لو كان بؤبؤاها قد تلقيا لطمة مباشرة.

لم تكن وحدها حينما جذبت انتباهي لأول مرة، وإنما

كانت جالسة إلى جوار شاب في مقتبل العمر، أنثوي المظهر، يفوقها تأنقاً في ملبسه، تفصح عيناه الواسعتان السوداوان وبشرته السمراء عن كونه من المغاربة، كانت علاقة حميمة تربطهما، وغالباً ما أقبلا إلى المشرب سوياً، حسبتهما عاشقين، اعتدت أن أرقبهما، قبل أن أكتشف أي شيء عنهما، كان يبدو دائماً كما لو قدم لتوه من نادي المقامرة، لم يكن فرنسياً تماماً في ملبسه فحسب، وإنما سمح لجانيت بأن تلاطفه علناً، وهو الأمر الذي يعده العرب في مقدمة الأمور المعيبة، كانا يحتسيان الكثير من الخمر. في بعض الأحيان يرافقهما شخص ثالث، رجل في الثلاثينيات من عمره، تبدو عليه الخشونة الذكورية البالغة، وربما لهذا لم يجارهما في تأنقهما.

في المرة الأولي التي بادلتني فيها جانيت الحديث في خفر، ربما لظنها بأني إنجليزي، كانت تجلس أمام النضد، كنت إلى يمينها، ورفيقها الشاب إلى يسارها، سألتني عن أحوال العمل في الفيلم الذي يصوره أصدقائي في مراكش، لم يكن ذلك بالحدث الهين بالنسبة لها، كانت على استعداد لتقديم حياتها لقاء ظهورها في الفيلم، وهو الأمر الذي سرعان ما تبين لي بجلاء، رددت على سؤالها بأدب جم، سعدت السيدة مانيون بتبادل الحديث بيني وأفضل صديقاتها، تبادلنا الحديث لبعض الوقت، ثم قدمتني إلى رفيقها الشاب الجالس إلى يسارها، كان زوجها، أذهلني ذلك، كان آخر شيء يمكن أن يخطر ببالي، تزوجا منذ عام، مع ذلك فمظهرهما يوحي بأنهما في شهرالعسل، لكنها حين تجلس وحيدة تواصل التحديق في حنين إلى الباب، ومن المؤكد أن ما تتوق إليه لم يكن حضور زوجها،

طرحت عليهما بعض الأسئلة في لباقة عن حياتهما، فعلمت أنهما يغادران المشرب في حوالي الثالثة، ويمضيان إلى الدار لتناول عشاء متأخر، يدلفان إلى فراشهما في الخامسة فجراً، فيظلان فيه حتى ما بعد الظهيرة.

أردت أن أعرف عمل زوجها، فقالت:

– لا شيء، فلديه والده.

استقبلت السيدة مانيون التي كانت تصغي للحديث هذا الرد بابتسامة ماكرة، أما الشاب الأسمر أنثوي المظهر فابتسم في حياء، مفلحاً في إظهار قدر لابأس به من أسنانه الجميلة، كان غروره يغلب على كل شيء حتى أكثر ألوان الحرج إيلاماً. شرب كل منا نخب الآخر واستغرقنا الحديث. أدركت أنه مدلل بقدر ما يوحي به مظهره. سألته عن الوقت الذي أمضاه في فرنسا، فقال:

– لم أقض وقتاً هناك، فلم يحدث أن سافرت خارج المغرب.

سألته عما إذا كان يحب الذهاب إلى باريس فقال إنه لايظن ذلك، هل يحب السفر إلى انجلترا؟ لا، ليست لديه رغبة حقيقية في ذلك. هل هناك بلاد يحب زيارتها؟ لا. كانت إجاباته دون استثناء متهافتة، كما لو كان مجرداً من الإرادة الحقيقية، أحسست أن ثمة شيئاً آخر لا يتطرق إليه بالحديث، شيئاً يقيده بهذا المكان، ولايمكن أن يكون جانيت لأنها أوضحت بجلاء تام أنها ترغب في أن تكون في أي مكان آخر بخلاف مراكش.

لاح هذا الثنائي الذي يبدو ليناً وعادياً، لغزاً حقيقياً بالنسبة لي. اعتدت مشاهدتهما كل ليلة في المشرب الصغير، وإلى جوار الغرباء الذين يرتادون المشرب لم يكن لهما اهتمام إلا بشيء واحد، هو مجموعة تسجيلات السيدة مانيون. كانا يطلبان أغنيات خاصة، يجدان بعضها جميلاً للغاية حتى إنهما يستعيدانها ست مرات متوالية، حينما يتشبعان بالموسيقي يشرعان في الرقص، في المساحة الضيقة المحصورة بين النضد والباب، يضمان أطرافهما في إحكام حتى إن الحرج يخالج المرء وهو يرقبهما، كانت جانيت تستمتع بهذا الأسلوب شديد الحميمية في الرقص، لكنها تجنباً لنقد النظارة تشكو من زوجها قائلة:

– إنه يتمسك بصورة مفزعة بهذه الطريقة في الرقص، ويرفض بأي طريقة أخرى، قلت له ذلك مراراً وتكراراً، لكنه لا يستطيع الكف عن هذا.

ثم تبدأ الرقصة التالية، وما إن يندمجا في الرقص حتى تحرص اشد الحرص علي ألا تفوتها لفة واحدة في الاسطوانة. تخيلت جانيت في بلاد أخرى، حيثما يحلق بها الخيال، وكيف أنها ستحيا الحياة ذاتها على وجه الدقة مع الناس أنفسهم وفي الزمن ذاته، فتراءت لي في لندن ترقص على إيقاع هذه المعزوفات عينها.

ذات ليلة انفردت بالسيدة مانيون في المشرب، فسألتني عن رأيي في جانيت، ولما كنت أعرف ما تتوقعه مني فقد قلت:

– إنها فتاة لطيفة جدا.

– لايمكنك أن تعرفها الآن، لو أنك تعرف كم تغيرت

خلال العام الماضي! يالها من فتاة مسكينة بائسة! كان ينبغي ألا تتزوجه أبداً، هؤلاء المغاربة جميعاً أزواج فاسدون، أبوه طائل الثراء، فهو ينحدر من عائلة طيبة، هذا صحيح، لكنه أعلن حرمان ابنه من ميراثه حين تزوج جانيت، وأبوها أصبح لايكترث بها بعد أن تزوجت عربياً، هكذا فإنهما معا مفلسان.

– كيف يسيران أمورهما إذن إذا كان لايعمل وأبوه لايعطيه شيئا؟

– ألا تعلم؟ أما تعرف من هو صديقه؟

– كلا، من أين لي ذلك؟

– لكنك شاهدته هنا جالسا معهما، صديقه هذا هو أحد أبناء الجلاوي، هو «صديق» ابن الجلاوي الأثير، ذلك يجري منذ فترة طويلة، وقد استشاط الجلاوي غضباً الآن، وصب جام هذا الغضب على ابنه، فهو لايمانع في أن يأتي ابنه النساء، ويرحب بأن يكون لابنه من النسوة ما يشاء، أما غير ذلك فلا... إذ يمقت ذلك، ومنذ أيام قليلة أرسل ابنه في مهمة بعيداً.

– وزوج جانيت يعيش على هذا؟

– نعم، ويتكسب منها أيضا، فيجعلها تضاجع أثرياء العرب، وهناك واحد منهم بصفة خاصة بمعية الجلاوي يعشق جانيت، ليس في شرخ شبابه، لكنه طائل الثراء، وقد رفضته في أول الأمر، لكن زوجها أجبرها على مضاجعته، وقد اعتادت الأمر الآن، وفي الوقت الحاضر فإن الثلاثة يتضاجعون معا، وزوجها يضربها إن رفضت، لكن ذلك يحدث بالنسبة للآخرين فقط الآن، هو غيور

جداً، ولا يدعها تضاجع إلا أولئك الذين يدفعون مبالغ طائلة لقاء ذلك، ويفجر شآبيب غيرته إن كان هناك من تود مضاجعته، يضربها حينما يكون هناك من لا تقبل بمضاجعته حتى لقاء أكوام النقود، ويضربها حين يكون هناك من تؤثرة حتى لتود مضاجعته بلا مقابل، هذا هو السر في تعاستها، فالفتاة المسكينة لا تستطيع إتيان ماتريده، وهي تنتظر الرجل الذي يمضي بها بعيدا عن هنا... لكم يؤسفني ما يحل بها، وهي في الوقت نفسه صديقتي الوحيدة هنا، وإذا رحلت لن يبقى لي أصدقاء.

– تقولين إن الجلاوي ساخط على ابنه.

– نعم، وقد أبعده لبعض الوقت على أمل أن ينسى خدينه الأثير، لكنه لن ينساه... فهما متعلقان أحدهما بالآخر.

– وماذا عن صديق جانيت؟

– مضى بدوره، فقد اضطر إلى مصاحبة ابن الجلاوي، باعتباره بمعيته.

– إذن فهما كلاهما بعيدان الآن؟

– نعم، تلك لطمة مفزعة لها، وهما الآن مفلسان ولابد أنهما يعيشان على الديون، لكن الأمر لن يطول، فليست هذه هي المرء الأولى التي يحاول الجلاوي فيها أن يباعد بينهما، فدائما يعود الابن إلى ما كان عليه، إذ لا يستطيع التحمل، بقاء زوج جانيت بعيداً عنه، هو أمر لا يمكنه تحمله، إن هي إلا اسابيع قلائل ويعود من جديد فيعلن أبوه استسلامه.

– هكذا يعود كل شيء على مايرام مرة أخرى.

– أوه، سيسوى كل شيء، نعم، لا ضير هناك، كل ما هنالك أن هذا الأمر يجعله فظاً معها قليلاً، إذ يحاول أن يجد من يسد الفراغ، وذلك هو السبب في تجاذبه الحديث معك، فهم يقولون إنك طائل الثراء، كان يفكر في عرض نفسه أولاً، لكنني قلت له ألا طائل من وراء ذلك. هل تحس بالود نحو جانيت؟

الآن فقط بدأت أدرك أن الشائعة التي تدور حول ثرائي قد انقلبت عليّ، غير أني على الأقل في جانب واحد لم أف السيدة مانيون حقها قالت: يجب أن يبعدها أحد عن مراكش، لاتعطه نقوداً لقاء جانيت فهي تتبدد مثلما جاءت ولا تستفيد الفتاة المسكينة شيئاً منها، لن تفلح قط في توفير شيء معه، فهو يسلبها كل شيء، ما عليك إلا أن تمضي بها بعيداً، قالت لي إنها على استعداد لذلك إذا أردت أنت، أما زوجها فليس بوسعه السفر، فهو ينتمي إلى معية ابن الجلاوي، كما لعلك تدرك، وبالتالي فليس بوسعه مغادرة البلاد في يسر، إذ لم يقدر له أبداً ان يحصل على جواز سفر، كم يغمرني الأسى لهذه الفتاة، ولشد ما تتدهور حالتها كل يوم، كان عليك أن تراها قبل عام مضى... ناضرة كالوردة في كمها، وما تحتاجه هو الرعاية الحانية والحياة اللطيفة، وهي في نهاية الأمر امرأة إنجليزية، كان أبوها طبعاً إنجليزياً، وهي رقيقة للغاية حتى ليصعب عليك تصديق مدى رقتها، أكنت تظنها في أول الأمر إنجليزية؟

قلت:

– لا، أو ربما ظننت ذلك، ربما كان عليّ أن أعرف أنها

إنجليزية من أسلوبها المهذب.

قالت السيدة مانيون:

– بالضبط، إنها مهذبة جداً، أليست كذلك/ تماماً كسيدة إنجليزية، إنني شخصياً لا أحب الإنجليز، فهم أكثر هدوءً مما يناسبني، تأمل حال أصدقائك! يمكن أن يوجد سبعة منهم أو ثمانية جالسين معاً طوال المساء وعلى امتداد ساعات دون أن تسمع كلمة واحدة، هذا يثير انزعاجي، فليس بمقدورك أن تعرف ما إذا لم يكن بينهم قاتل مجنون جنسياً، لكنهم بالمقارنة بالأمريكيين...... الأمريكيون لا يمكنني احتمالهم إطلاقا، إنهم برابرة، هل رأيت هراوتي المطاطية؟

قالتها، منتزعة الهراوة من وراء النضد، وملوحة بها لمرتين، ثم أضافت:

– أحتفظ بها للأمريكيين، وأستخدمها بسهولة. صدقني!

المحجّب

اعتدت حينما يحل الغسق أن أشق طريقي إلى الساحة الكبرى، التي تتوسط المدينة، لم يكن ما أنشده هناك الألوان وعجيج الأصوات، فقد ألفت هذه الأمور، إنما كنت أسعى وراء كومة صغيرة بنية اللون تتمدد على الأرض، لاينِد عنها صوت وإنما مقطع صوتي، واحد: «إي_ي_ي_ي_ي_ي_ي» لايتخافت، لا يتصاعد، وإنما يستمر على هذا النحو، يلم بمسامعك دوماً تحت آلاف النداءات والصيحات، كان أبعد أصوات ساحة جامع الفناء عن التغيير، يظل على حاله طوال المساء، ومن المساء حتى المساء التالي.

من بعيد أصغي إليه، يدفعني نحوه قلق لا يمكنني تفسيره على نحو مزمن، على أي حال كنت سأمضي إلى هناك، ففي الساحة الكثير مما يجتذبني، لم يداخلني الشك مرة في أنني سأجده في كل مرة اذهب إلى هناك مع كل ما يحيط به. في مواجهة هذا الصوت وحده الذي اختزل في تردد صوتي واحد، استشعرت شيئاً يقرب من الرهبة، كان يترامى عند حافة الحياة ذاتها، وما كانت الحياة التي تدب فيه تفصح عن ذاتها إلا في ذلك الصوت. اعتدت أن أصغي تواقاً، قلقاً، حين أبلغ بقعة

بعينها في مسيرتي، في البقعة ذاتها على وجه الدقة دوماً، يتناهى إليّ الصوت كطنين حشرة: «إي_ي_ي_ ي_ي_ي_ي_ي».

كانت سكينة غامضة تغمر جسدي كله عندئذ، وفيما تظل خطواتي مترددة قلقة قبل هذا الموضع، تنطلق عقب ذلك في عزم قاطع نحو الصوت، كنت أعرف مصدره، ألم بالحزمة الصغيرة، البنية، الممددة على الأرض، التي لم أرمنها قط إلا خرقة خشنة معتمة، لم أر أبداً الفم الذي تند عنه تلك الـ «إي–ي–ي–ي» ولا العين ولا الوجنات ولا أي جزء من الوجه. ما كان بوسعي القطع بما إذا كان وجه ضرير أو رجل يملك نعمة البصر. كانت الخرقة المتربة تلف الرأس كالغطاء، فتخفي كل شيء. كان المخلوق– ليس بوسعي أن أصفه إلا على هذا النحو– مقعياً على الأرض، محدودب الظهر تحت الخرقة، لم يكن وافر البدن، وإنما بدا صغير الجرم، ضعيفاً، وما كان هناك الكثير مما يمكن للمرء أن يحدسه. لم يقدر لي قط أن أعرف مدى طوله، إذ لم أره أبداً منتصباً، وما أقعى منه على الأرض خفيضاً، حتى ليتعثر المرء فيه دون أن يظن أن ثمة ما يعترض سبيله، لو أن الصوت كف عن التردد. ما رأيته يقبل، ولا شهدته يمضي، ولست أدري ما إذا كان أحدهم يجلبه ويضعه هنا، أم أنه يسير بنفسه.

لم يكن الموضع الذي اختاره محمياً ولا آمناً بحال، بل كان أكثر أجزاء الساحة تعرضاً لخطى السابلة، وماتني الأقدام تمضي جيئة وذهاباً على أجناب الكومة بنية اللون كافة، في الأمسيات المزدحمة يختفي تماماً وراء غابة من سيقان المارة، فأجد صعوبة في التوصل إليه، رغم أني أعرف موضعه على وجه

الدقة، ويتناهى اليّ صوته، لكنه يظل في مكانه حين ينفض الناس، ويلف السكون حوله، وتشغر الساحة مترامية الأطراف. يجثم هنالك في الظلمة كرداء عتيق، بالغ الاتساخ، أراد أحدهم التخلص منه، فألقاه خلسة وسط الناس، حيث لا يلحظه أحد. غير أن الناس أنفض جمعهم، وبقيت الحزمة وحدها هناك. لم يحدث أن انتظرت إلى أن ينهض أو يحمله أحدهم، وإنما كنت أنسل في الظلام، وشعور بالعجز والفخار يخنقني!

كان الشعور بالعجز هو احساس تجاه نفسي، فقد شعرت بأنني لن أقوم بشيء قط لاكتشاف سر هذه الحزمة، فالرهبة من شكلها تغمرني، ولما لم يكن بمقدوري أن أخلع عليها شكلاً آخر فقد تركتها هنالك جاثمة على الأرض، حرصت لدى الاقتراب على عدم الارتطام بها كما لو كنت سأوذيها أو أعرضها للخطر. كنت أرتاد هذا الموضع كل مساء، فيكف قلبي كل مساء عن الخفقان حين أميز الصوت، ويشب بين جوانحي حين ألمح الحزمة. أما كيفية وصولها إلى هناك وابتعادها ثانية فكانت أكثر قداسة من تحركاتي، لم يحدث قط أن تجسست عليها، ولم أدر إلى أين تمضي باقي الليل والنهار التالي، كانت شيئاً مفارقاً ولربما كانت تنظر إلى ذاتها باعتبارها كذلك، راودتني نفسي أن أمس الغطاء بني اللون هوناً بأصبعي... يقيناً سيلحظ المخلوق الملتف به ذلك، لربما كان له صوت ثان يبدي به استجابة للمسه، لكن هذا الإغواء كان يتراجع سريعاً دائما أمام عجزي.

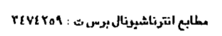
قلت إن ثمة شعوراً آخر يخنقني، خلال انسلالي بعيداً عن الحزمة، هو الشعور بالفخار، كنت فخوراً بها لأنها تنبض بالحياة، أما ما كانت تحدث نفسها به، فيما أنفاسها تتردد بين أقدام الناس

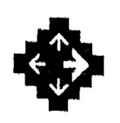
فأمر لن أعرفه قط، وقد ظل معنى ندائها مستغلقاً عليّ تماماً كوجودها بأسره، لكنها كانت تنبض بالحياة، وكل يوم في الموعد نفسه تجدها هنالك، لم أرها تلتقط قطع النقد التي يلقي بها المارة إليها، وما كانوا يلقون بالكثير، فما ترامت هناك إلا قطعتان أو ثلاث، ربما لم تكن لها أذرع تطال بها القطع النقدية، ربما لم يكن لها لسان تشكل به حرف اللام في لفظ الجلالة، فاختصرت اسم الله فيما يند عنها: «إي ـ ي ـ ي ـ ي ـ ي» لكنها تنبض بالحياة، وبكد وإصرار لامثيل لهما تصدر صوتها الواحد، تصدره: ساعة بعد أخرى، إلى أن يغدو الصوت الوحيد في الساحة الهائلة بأسرها، الصوت الذي يبقى بعد أن تفنى الأصوات الأخرى جميعها.

❖

المحتويات

❖


مطابع انترناشيونال برس ت : ٢٤٧٤٢٥٩



صدر في هذه السلسلة :

(١) أيام من حياتي ❖ هرمان هسه
(٢) قصص التحول ❖ جوجول، كافكا، روث
(٣) الزائر العابر ❖ أمجد ناصر
(٤) من مجمرة البدايات ❖ محمد عفيفي مطر
(٥) حمار البحر ❖ خالد عبد المنعم
(٦) خطوط الضعف ❖ علاء خالد
(٧) بر معتم يصلح لتعلم الرقص ❖ إيمان مرسال
(٨) لمة موسيقى تنزل السلالم ❖ علي منصور
(٩) صمت لغلة مبتلة ❖ فاطمة قنديل
(١٠) شهرزاد في الفكر العربي الحديث ❖ د. مصطفى عبد الغني
(١١) إغراء الغرب ❖ اندريه مالرو
(١٢) لا أحد يأتي هذا المساء ❖ محمد موسى
(١٣) حوريات البحر ❖ إدوار الخراط
(١٤) حواس خاسرة ❖ منعم الفقير
(١٥) طيور جديدة... لم يُفْسِدْها الهواء ❖ طارق إمام
(١٦) سرّاب الفريكو ❖ حلمي سالم
(١٧) صورة شخصية في السبعين ❖ جان بول سارتر
(١٨) ٠٠٠ وليلة ❖ صفاء فتحي
(١٩) أبورق الندم ❖ سعد الحميدين
(٢٠) في البحث عن لؤلؤة المستحيل ❖ د. سيد البحراوي
(٢١) الدليل اللغوي العام ❖ سليمان فياض
(٢٢) الأفعال العربية الشاذة ❖ سليمان فياض
(٢٣) قصة الأدب الفرنسي ❖ د. أمينة رشيد
(٢٤) معجم تفسير الأحلام في ضوء علم النفس الحديث ❖ توم شيتوايند
(٢٥) لماذا؟ ❖ إدوار الخراط
(٢٦) الكتابة ❖ مرجريت دوراس
(٢٧) معجم الجحيم ❖ سيف الرحبي
(٢٨) في مستوطنة العقاب ❖ فرانز كافكا
(٢٩) غواية موتي ❖ سلوى تميمي